فتْحُ مَكّة
ودُخول قُرَيش فى الإسْلاَم
ووصُولها إلى قيادَة أمّة الإسْلام

obeikandl.com

obeikandl.com

فتح مَكّة :

كان فتح مكة فى رمضان سنة ٨هـ/ يناير سنة ٦٣٠م . حادثاً فاصلاً فى السيرة النبوية وتاريخ العرب جميعاً ، إذ به انتهت تلك الحرب الطويلة المدى بين الإسلام وقريش . وبدخول مكة وقريش أمة الإسلام انحسم الخلاف فى أمر الإسلام بين العرب ، فأقبلوا يدخلون فى الإسلام جماعات ووفوداً وأفراداً ، فأما من كان ذا إيمان من العرب فقد دخل الإسلام عن إيمان ، وأما من لم يكن ذا إيمان فقد اقتنع بالأمر الواقع واستسلم ودخل الإسلام وانضم إلى أمية . وهذه قريش كلها تنضوى تحت لواء محمد صلوات الله عليه وسلامه . فأىُّ برهان هو فى نظر أولئك الأعراب أكبر من هذا على صدق محمد فيما كان يقول ويدعو له ؟

وكان رسول الله ﷺ واثقاً فى أن ما وقع فى الحديبية كان آخر مظهر لمقاومة قريش مكة للإسلام ، فقد وجد فى ذلك اللقاء أمامه رجالاً أنهكتهم الحرب وأفقرهم خوف التجارة وهاضت جناحهم قلة النصير فلم يبق من المكابرين منهم إلا العداوة وشقشقة اللسان والحرص على ماء الوجه . وكان رسول الله حريصاً أشد الحرص على ألاَّ يجردهم من ذلك ، وفى قرارة نفسه كان يحس أن معظمهم سيدخلون الإسلام إذا أتيحت لهم فرصة لدخوله دون الشعور بالهوان ، فكان حريصاً على أن يعطيهم هذه الفرصة حتى إذا دخلوا الإسلام لم يدخلوه حطاماً ، بل ناساً كرماء ينتفعون بالإسلام وينتفع بهم الإسلام ، ولهذا فسنجده حليماً معهم الحلم كله ، كريماً معهم الكرم كله .

وقد رأينا أنه عندما عقد الرسول ﷺ صلح الحديبية مع قريش دخلت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة فى حلف قريش وعقدها . ودخلت خزاعة كلها فى عهد رسول الله ﷺ وعقده ، وكانت خزاعة كما ذكرنا مرة بعد أخرى مع رسول الله ﷺ منذ استقر فى

المدينة وأخذ يبنى جماعته بها . ويذهب المؤرخون إلى أن خزاعة أسلمت منذ مر الرسول الكريم بمنازلها وهو فى طريقه إلى يثرب مهاجراً . وهو تزيُّد لا معنى له ، بل يذهب المؤرخون إلى أن خزاعة كانت فى حلف عبد المطلب بن هاشم ، ولقد أورد الواقدى نص كتاب الحلف الذى عُقد بين عبد المطلب بن هاشم والخزاعيين ، وهو كتاب منتحل دون أدنى شك وضعه الخزاعيون بعد أن أسلموا فى عقد رسول الله وأمة المدينة . فلم يكن الجاهليون يكتبون أحلافهم فى صحائف أو على العظام أو لحاء الشجر ، إنما كانت هناك طقوس لعقد الأحلاف تتم عند أصنام المعبودات ويقسم الحيَّان على ما يريدون أن يتحالفوا عليه ثم يقدموا ذبائح عند النُّصُب أو يغمسوا أيديهم فى دم أو طيب . وأبسط ما يدل على زيف هذا الكتاب هو أن فيه نص الكتاب الذى سيعطيه رسول الله (الآن) لخزاعة وهو فى طريقه لفتح مكة .

ولكن الكتاب بين عبد المطلب وخزاعة إذا كان زيفاً ، فإن الحلف بين خزاعة ورسول الله حقيقة دفعت إليها تصاريف السياسة . وما قدره الله فى عمله من الخير للخزاعيين . وقد تحدثنا عن خزاعة فى القسم الأول من هذا الكتاب وحققنا أمر نسبها إلى حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد ، وإذا كنا نشك فى مساق هذا النسب الذى يربط نواة خزاعة إلى الأزد فقد بيَّنا أنه انضافت إلى نواتهم جماعات من إلياس بن مضر ، إما مباشرة عن طريق أفصى بن عامر ، أم غير مباشرة عن طريق خندف امرأة مضر ، ولكن عداد خزاعة فى النهاية فى عرب اليمن وهم كذلك أبناء عمومة الأوس والخزرج ، فهؤلاء فيما يقول النسابة أولاد عمرو بن ثعلبة العنقاء أخى حارثة بن عمرو جد خزاعة فيما يقول الرواة .

وقد بيَّنا فى القسم الأول بطلان ما زعمه ابن حزم فى الجمهرة من أنهم - قطعاً - من أبناء لُحَىّ بن عامر بن قمعة بن إلياس بن مضر ، وهو زعم أوقعه فى أخطاء كثيرة فى مساقات أنسابه ، ونحن لا نأخذ بصحة معظم الأسماء الواردة فى شجرات الأنساب هذه ، فكلها رسوم هندسية نسقها الرواة لتأييد علاقات عصبية ومصالح سياسية أو لنقض مصالح أخرى ظهرت بعد الإسلام ، وإنما نحن نأخذ بمعناها

جملة ، فليس من الضرورى أن نقول إن خزاعة من الأزد ، ولكن لابد أن نقرر أن أصلهم من اليمن شأنهم فى ذلك شأن كندة وشأن غسان وشأن الأوس والخزرج وقد نصر الله رسوله الأكرم بالأوس والخزرج ونصره بخزاعة ، ومن هنا جاء الحديث النبوى الذى يقول « إن الإسلام يمان » وهو حديث موضوع أيضاً [1] ، ولكن فى معناه ومغزاه حقيقة تاريخية .

والحقيقة التاريخية هنا هى أن خزاعة أصبحت بفضل الحلف مع رسول الله وأمة الإسلام بالمدينة أقوى قبائل المنطقة الممتدة من مكة إلى المدينة ، ولم تأت هذه القوة من التأييد المستمر الذى قدمته أمة الإسلام إلى خزاعة ، بل نتجت أيضاً من إلحاح المسلمين على توجيه الضربات إلى القبائل الموالية لقريش ، أو التى كانت مناوئة للإسلام ولخزاعة أيضاً فى تلك المنطقة مثل لحيان ومحارب والدئل وعَضَل والقَارَة ، وكلها كانت قبائل بدوية . ومثال ذلك بعض بنى سليم بن منصور وكانت منازلهم عند معدن بنى سليم بين مكة والمدينة عند ما يُعرف اليوم بمهد الذهب ، وكذلك بعض بنى هلال بن عامر بن صعصعة من أعراب أطراف نجد الغربية ، وتدخل مع هؤلاء جماعات من قيس عيلان عاشت بعض فروعها فى الحجاز ، وكانت هذه كلها تنسب نفسها إلى مُضَر ، وتدخل فى هذه القبائل غطفان بفروعها العديدة . وكانت لاتكف عن الغارة والتدبير على المسلمين .

وخلال الفترة من واقعة الخندق فى ذى القعدة سنة ٥هـ/ أبريل ٦٢٧م . إلى الحديبية فى ذى القعدة سنة ٦هـ/ مارس ٦٢٨م. لم توقف أمة المدينة ضرباتها على أولئك البدو حتى انكسرت شوكتهم وضعفت قواهم ولم تعد منافسة لخزاعة ، وذلك كله زاد الخزاعيين تعلُّقاً بالإسلام ورسوله ، فقد وجدوا فى ظل الإسلام من العزة والمنعة ما لم يعرفوه من قبل ، وتحققت تحت سمعهم وأبصارهم كل كلمة قالها الله فى قرآنه والرسول فى حديثه وزالت عن خزاعة وصمة أو مِسْحة الذل والضعف التى

(١) صحة لفظ الحديث « الإيمان يمان » وهو حديث صحيح أخرجه البخارى فى صحيحه (٨/ ٩٩) (١٣/ ٧٨) وكذا مسلم فى صحيحه (كتاب الإيمان ٨٩ ، ٩٠) والله تعالى أعلم . وما ذكره الدكتور حسين مؤنس جاء فى إطار التأصيل السياسى للأحداث وارتكازها على أسس دينية وأثر هذا على التطور السياسى فى تاريخ المسلمين ، وهى وجهة نظر معتبرة عبر عنها المؤلف (المراجع) .

كانت قد لصقت بهم بعد أيام عبد المطلب وعلو نجم خصوم بنى هاشم من بنى عبد شمس وأحلافهم ، وكان الخزاعيون - كما سبق أن ذكرنا - أنصاف حضر- Semi nmads أو متنقلين بين الاستقرار إذا وجدوا الماء الوافر أو المطر المتصل والظعن إذا عَزَّ الماء واضطرتهم ظروف المناخ وتصاريف صراع القبائل إلى الظعن والتنقل ، وهم فى هذا كله يشبهون بقية العرب الراجعين إلى أصول يمانية : الأزد فى عمان وفى جبال السراة وكندة على أطراف نجد والأوس والخزرج فى المدينة وبنو غسان وبنو لخم فى الشام . فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه واستظلوا بأمانه هاجر منهم إلى المدينة واستقر فيها من هاجر واستقر ، وظل الباقون فى مواضعهم فيما بين مكة والمدينة مستقرين آمنين فى بلادهم مستمسكين بالعروة الوثقى ، وهى عروة الإسلام .

ولم يعز بالإسلام قوم من خزاعة كما عَزَّ بنو أسلم بن لحى الذين ينسبهم ابن حزم فى شطحة من شطحاته القليلة إلى عامر بن قمعة بن إلياس بن مضر ، وهم فى الحقيقة أزد يمانيون قد ربط النسابون نسبهم بنسب مضر من باب التبرك والتشرف بالانتساب إلى قوم محمد ﷺ على ما قلناه ، وقد رأينا من بنى عدى الخزاعيين هؤلاء بديل بن ورقاء وعرفنا صدق إسلامه وولائه لرسوله فى محادثات الحديبية ، ويصفه ابن حزم بأنه كان أدهى العرب وابنه عبد الله وهو صحابى سينضم إلى شيعة على ويُقتل فى معارك صفين ، وأخوه نافع بن بديل صحابى من شهداء بئر معونة ، ومن أكابر الخزاعيين وصحابة الرسول بريدة بن الحصيب الأسلمى الخزاعى ، وكان فارساً نجداً شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ، وآخر مشاهده فى حياة الرسول أنه كان صاحب لواء أسامة بن زيد فى سريته التى أمر بها رسول الله وأنفذها أبو بكر بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى .

وكان بريدة عندما سمع بوفاة الرسول قد عاد بلواء أسامة وجعله على باب أسامة ابن زيد ، حتى إذا نفذ البعث أخذه وقَالَ تحته فى أُبْنَى من قرى البلقاء وعاد بعد ذلك إلى المدينة وأخمل أمره كما أخمل أمر أسامة بن زيد بعد بعثة هذا ويقال : إن بريدة هذا أسلم على يد الرسول ﷺ وهو مهاجر من مكة إلى المدينة مع أبى بكر ، هذا مستبعد وإنما أتت هذه الجلالة كلها لبريدة بن الحصيب من أولاده وأحفاده الذين هاجروا مع

مواليهم إلى البصرة ، ثم إلى خراسان واستقروا بمرو ، وكانوا من أعيان العرب بها وأنكروا ظلم بنى أمية ودخلوا فى شيعة الهاشميين وكان فيهم ثلاثة من نقباء الدعوة الهاشمية التى تحولت إلى دعوة عباسية ، ومن هنا ازداد ذكر بريدة طيباً بفضل صحبته للنبى وبفضل ما قسم لأحفاده وموالى بيته من القدر العظيم فى مرو ، ومن هنا لا نتعجب عندما نقرأ أن رسول الله ﷺ قال لبريدة بن الحصيب وللحكم بن عمرو الغفارى : أنتما عينان لأهل المشرق .

وقد تأكدت مكانة الخزاعيين عندما اعتدت بنو بكر بن عبد مناة على بنى كعب وهم بيت كبير من أسلم ، فكان ذلك كما سنرى بعد قليل السبب المباشر فى مسير الرسول إلى مكة فاتحاً ، وفى طريق محمد ﷺ إلى مكة يمر بمنازل خزاعة وهم أنصاره وأولياؤه ، ويلقاه بريدة بن الحصيب عند غدير الأشطاط وهى منزل كان على الطريق الرئيسية من مكة إلى المدينة وتسمى بالجادة أو الطريق طريق البيداء ، وتقع على ثلاثة أميال شمالى عسفان أى على خمسة كيلو مترات منها على وجه التقريب ويقول له : يا رسول الله ، هذه أسلم وهذه محالها وقد هاجر إليك من هاجر منها ، وبقى قوم منهم فى مواشيهم ومعاشهم فقال رسول الله ﷺ : وأنتم مهاجرون حيث كنتم ، ويدعو العلاء بن الحضرمى (كاتبه) ويأمره بأن يكتب من إملاء الرسول كتاب إقرار لخزاعة فى منازلها وتأمين لهم فيها على مثال ما سيكتبه الرسول لكل من جاءه مبايعاً مسلماً منيباً من وفود العرب فى عام الوفود ، ورسول الله فى هذه الكتب أراد أن يقر كل قوم فى أرضهم ومرابعهم ويؤمنهم فيها ليقيم السلام بينهم ، وهو لم يعط فى كتبه كلها أحداً أرضاً إلا أن تكون أرضاً غامرة لا يطلبها أحد فهو يريد عمارها ، لأن رسول الله لم يكن ليتصرف إلا فيما ملكت يمينه ، لأنه صلوات الله عليه رمز الحق والشرع ، والشرع لا يجيز للرجل أن يتصرف إلا فيما يمتلك فعلاً وشرعاً ، أما ما يقال من أن الرسول أعطى بنى تميم الداريين أرضاً فى فلسطين ولم تكن قد فُتِحَتْ بعد ، وأعطى الرهاويين أرضاً فى الجزيرة فأحاديث لا تصح ، ولكن مؤرخينا يرددونها دون تفكير ، بل ذكرها بعض الفقهاء وحاولوا أن يجدوا لها تبريراً .

ونص الكتاب الذى كتبه العلاء بن الحضرمى عن رسول الله لبنى أسلم

الخزاعيين : « هـذا كتاب من محمد رسول الله لأسلم ، لمن آمن منهم بالله أو شهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فإنه آمن بأمان الله وله ذمة الله وذمة رسوله ، وأن أمرنا وأمركم واحد على من وهمنا من الناس بظلم ، اليد واحدة والنصر واحد ، ولأهل باديهم مثل ما لأهل قرارهم ، وهم مهاجرون حيث كانوا » .

ويبدو أن التحمس للإسلام ورسوله والولاء لهما كان قد أصبح أمراً عاماً مشتركاً بين الخزاعيين كباراً وصغاراً . فقد حكى الواقدى فى كلامه عن فتح مكة أن رجلاً من كنانة يسمى أنسَ بن زنيم الديلى هجا أو سبَّ رسول الله ﷺ فسمعه غلام من خزاعة فوقع به فشجه ، فكان ذلك من أسباب وقوع القتال بين بنى بكر وخزاعة .

وتذهب النصوص إلى أن بنى بكر بن عبد مناة - عدا مدلج - عندما قرروا الإيقاع بخزاعة وأيَّدهم جماعة من قريش فى ذلك فيهم صفوان بن أمية بن خلف ومكرز بن حفص بن الأخيف ، وحويطب بن عبد العزى ، ونفر آخر من بنى عامر ابن لؤى ومن لَفَّ لَفَّهم ، قد وافقوا على أن يشتركوا فى الغارة متنقبين حتى لا يُعرف أمرهم ، وهذا مستغرب لأن أولئك الرجال كانوا كفاراً وأعداء للإسلام فعلاً ، ولكنهم لم يكونوا حمقى إلى الحد الذى يجعلهم يقعون فى خطأ فاحش كهذا ، ومثلهم - مهما تنقب - لا يخفى أمره إذا اشتركوا فى قتال ، ولكن من الثابت أن أبا سفيان لم يشترك فى تلك الحماقة ، فمن قائل إنه لم يعلم بها ، ومن قائل إنهم حدثوه فى أمرها فنصحهم بألاَّ يقدموا عليها .

ومن الواضح أن ذلك الرجل كان قد أيقن الآن وأكد ألا قِبَل له ولا لقومه بمحمد أو أمة المدينة واتجه تفكيره إلى موادعة المسلمين ، وإن لم يدخل الإيمان قلبه . أما محاربة المسلمين فأمر لم يكن يخطر له على بال . على هذا الرأى كانت بقية بنى كعب ابن لؤى وهم قلب قريش البطاح وبيتها وعددها . ثم كان ما كان من عدوان بنى بكر ابن كنانة على الخزاعيين ، ذلك الاعتداء البشع الذى يتجلى فيه الحقد العميق الذى كانت بنو بكر تحمله لخزاعة التى أصبحت سيدة الحجاز وتهامة من دون بنى بكر وبقية كنانة وكانوا يحسبون أنفسهم قبل الإسلام أعز من خزاعة وأكرم وأمنع فوجدوا أنفسهم يتضاءلون إلى جانب خزاعة التى عزَّتْ بالإسلام . وحقد هذا القبيل من

كنانة على خزاعة يعدل حقد قريش الكفر على الإسلام الذى أنزلها من صدارة الجزيرة العربية وانتزع منها الفضل والشرف والثروة والمكانة الدينية ، وقديماً قالوا : إن الحقد أسوأ دليل وأشأم ناصح .

لقد انقضَّ نوفل بن معاوية الدؤلى وقومه من بنى بكر بن عبد مناة على الخزاعيين وهم فى منازلهم غارُّون مطمئنون لا يتوقعون شراً من أحد فى ظل صلح الحديبية ومدته عشر سنين . لم ينقضِ منها إلا سنة وثمانية شهور أو تسعة فنحن الآن فى شعبان سنة ثمان فى الغالب ، وربما يكون الذى أجج حقد زعماء القرشيين المقيمين على كفرهم، هو التوفيق الذى لا يكاد يصدق الذى حققته أمة الإسلام خلال هذه الفترة القصيرة. ويكفى فتحها لخيبر وضم أراضيها وما بينها وبين المدينة من أراضٍ إلى أمة الإسلام وما استتبعه ذلك من كسر شوكة غطفان وأسد وبنى طىء وامتداد نطاق أمة الإسلام إلى فدك شمال شرقى خيبر ، وإلى تيماء ووادى القرى شمالى الحجاز .

وهذا يفسر لنا كيف أن نوفل بن معاوية الدؤلى وقومه من بنى بكر بن عبد مناة انقضوا على الخزاعيين وأنزلوا بهم مذبحة بشعة ، وكان الهجوم فى موضع من منازل خزاعة قريب من مكة . ونحن نعرف أن المركز الكبير لخزاعة كان عند غدير الأشطاط ، على نحو يومين شمالى مكة أى سبعين كيلو متراً على وجه التقريب ، وقد أسرع الناجون من تلك المذبحة إلى مكة ليحتموا بدار شيخهم بديل بن ورقاء ، وكان له فى مكة دار واسعة ، وكان من أصحاب المكانة هناك ، وكانت هناك دار رجل آخر من سراة خزاعة يسمى رافعاً الخزاعى ، ولم نستطع التعرف على رافع هذا فيما بين أيدينا من المراجع ، وتسلل زعماء القرشيين من بنى عامر بن لؤى إلى منازلهم « يظنون ألا يُعرفوا وألا يبلغ هذا محمداً ﷺ » كما يقول الواقدى [1] وعندما بلغ الناجون مكة وتخطوا الحرم ظنوا أن ذلك يوقف نوفلاً فصاحوا : يا نوفل إلهك ! إلهك ! قد دخلت الحرم ، قال : لا إله اليوم يا بنى بكر (يخاطب قومه) قد كنتم تسرقون الحاج ، أفلا تدركون ثأركم من عدوكم ! لا يريد أحدكم أن يأتى امرأته حتى يستأذننى ، لا يؤخر أحد منكم بعد يومه هذا ثأره .

---

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٧٨٤ .

ولم يكد القرشيون يفرغون من فعلتهم هـذه حتى أدركوا جسيم خطئهم فيما فعلوا، فإذا صدق الرواة فى كل ما قالوا عن نقض النفر الذين ذكرناهم من قريش للعهد ، فإن ذلك يدل على أن القبيلة كانت قد فقدت وحدتها الأولى وقدرتها على تسيير أمورها كلها فى الطريق الذى ترتئيه أغلبية أهل الرأى منها كما كان عهدنا بها دائماً ، والذى يدعونا إلى الشك فى صحة بعض ما تقصه علينا المراجع من أمر نقض قريش للعهد بالطريقة الجافة القصيرة النظر التى تصرَّف بها من يقال إنهم اشتركوا فى عدوان بنى بكر بن عبد مناة على خزاعة ، هو تبرؤ أبى سفيان من جريرة هذا العمل وقوله إنه تم بدون علمه ، وهو بالفعل لم تكن له يد فيه ، فكيف يفعل بنو عامر بن لؤى ذلك ويُعَرِّضون أمن قريش كلها للخطر دون أن يكون هناك اعتراض قوى من جانب الفريق الأعقل من القرشيين ، وفيهم أبو سفيان رأس بنى أمية وأحلافهم .

ثم إن الواقدى يأتينا بخبر يدعونا إلى مراجعة أنفسنا فى التسليم بأن هذا الفريق من قريش قد شارك فى العدوان على خزاعة بالطريقة التى تذكرها الروايات ، وهى طريقة بعيدة كل البعد عما نعرفه من تصرف القرشيين ، والخبر يقول : حدثنى عبد الله بن عامر الأسلمى عن عطاء بن أبى مروان ، قال : قال رسول الله ﷺ لعائشة : قد حِرْتُ فى أمر خزاعة . قال ابن واقد : فقالت عائشة : يا رسول الله ، أترى قريشاً تجترىء على نقض العهد بينكم وبينهم وقد أفناهم السيف ؟ فقال رسول الله ﷺ : ينقضون العهد لأمر يريده الله تعالى بهم . قالت عائشة : خير أو شر يا رسول لله ؟ قال : خير ! [1] .

ومعنى ذلك أن رسول الله لم يكن متأكداً مما قاله له الخزاعيون . ولكن القرشيين إذا كانوا قد نقضوا العهد مع قريش ، فيكون ذلك لخير أراده الله بهم . وهذا صحيح وذلك كله لا يمنع من القول بأن عدواناً ما من بنى بكر بن عبد مناة قد وقع على نفر من خزاعة وهم مسلمون ، وما دام هذا العدوان قد حدث ، وما دام الخزاعيون قد طلبوا النصرة من رسول الله ﷺ وهو رأس أمة الإسلام ومن ضوى إليها واستظل بعهدها وآمن ، فقد كان لابد أن يسير المسلمون لنصرة المؤمنين على الكفار المعتدين ، وما دام المعتدون فى عقد قريش وعهدها فإن القصاص يشمل قريشاً ومكة ، خاصة

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٧٨٨ .

وأن رسول الله ﷺ لم يزمع من بادىء الأمر قصاصاً ، بل علاجاً حاسماً لداء قريش وشفاء لها من الأزمة الخانقة التى كانت تعانيها .

فقد كان الرسول يعرف أن معظم المكيين قد أسلموا أو يريدون الدخول فى الإسلام ولم تبق على العناد منهم إلا طائفة من الزعماء ، وليس من حق أولئك الزعماء أن يمنعوا الخير عن بقية الناس ، ومكة كانت ضرورية للإسلام كما كان الإسلام ضرورياً لها ، وقرار رسول الله ﷺ بفتح مكة كان قرارَ خير ورحمة ورفق . وكان فى نفس الوقت إكمالاً لجانب كبير من الرسالة المحمدية ، وفيه الخير كل الخير لكل مكى بمن فيهم أولئك المعاندون .

وكان طبيعياً أن يحس المكيون أنهم كسروا العهد مع محمد ، وأن خزاعة لابد مستجيرة به ، وأنه لن يتأخر عن نصر خزاعة ، ويتصدى لعلاج الموقف أبو سفيان صخر بن حرب ، وينتهى دور بنى عامر بن لؤى فى قيادة قريش بعد أن جرُّوا قريشاً معهم إلى هذا المأزق العسير .

وهنا نجد أنفسنا أمام معضلة من معضلات السيرة ، فإن رواتنا يقصون علينا أخبار ذهاب أبى سفيان إلى المدينة ، وما لقيه هناك من إعراض الناس أجمعين ، حتى رسول الله ﷺ يقول له بعد أن أجار بين الناس : أنت تقول ذلك يا أبا سفيان أى : أنك أجرت نفسك . وما دام رسول الله لم ينكر الجوار ، فمعنى ذلك أنه لن يقصد أبا سفيان وقومه بأذى .

ويروى الواقدى رواية نستطيع أن نستنتج منها أشياء قليلة ، ولكننا فى حاجة إليها ، لأننا فى الحقيقة لا نرى شيئاً واضحاً من خلال الضباب الكثيف الذى يلف الحوادث السابقة على فتح مكة .

يقول الواقدى : « لما صاح (أبو سفيان يجير بين الناس) لم يقرب النبى ﷺ ، وركب راحلته وانطلق إلى مكة ، وكان قد حُبِس وطالت غَيْبَته ، وكانت قريش قد اتهمته حين أبطأ أشد التهمة ، وقالوا : والله إنَّا لنراه قد صبأ واتبع محمداً سراً وكتم إسلامه ، فلما دخل على هند ليلاً (يريد زوجته) قالت : لقد حُبِست حتى اتهمك

قومك ، فإن كنت مع طول الإقامة قد جئتهم بحجج فأنت الرجل ، ثم دنا منها فجلس مجلس الرجل من المرأة ، فجعلت تقول : ما صنعتَ ؟ فأخبرها الخبر ، وقال : لم أجد إلا ما قال لى عَلىّ ، فضربت برِجْليها فى صدره ، وقالت : قُبِّحتَ من رسول قوم» (١) .

ونسأل الآن : من هى قريش التى كانت ترجو أن يُوفِّق أبو سفيان فى الحصول على موافقة رسول الله على موالاته ؟ والجواب أنه لا يصدق أن كل قريش كانت تخشى مسير الرسول إلى مكة ، فالكثيرون جداً من المكيين كانوا قد أسلموا ، فهم يحبون مجىء رسول الله والإسلام .

وهذا الخبر غير مقبول لأن أبا سفيان ذهب إلى المدينة فى سفارة عامة تتصل بمصير مكة كلها ، فإن الصلح بين مكة والمدينة قد انتقض وأبو سفيان ذهب إلى المدينة لينظر فى إمكان إصلاح ما فسد ومد المدة . وقد عاد من المدينة فكان لابد أن يجتمع بأهل مكة بمجرد عودته ويطلعهم على ما وصل إليه وينتشر الخبر ويعرفه الناس ، لأن الأمر كان خطيراً يتصل بمصير مكة كلها ، فلا معنى إذن للقول بأن هنداً امرأة أبى سفيان لم تعرف الخبر إلا من زوجها وهما فى حال خلوة . والحقيقة أن أبا سفيان أخبر أهل مكة بما فعل فى المدينة ، وما نصحه به علىّ بن أبى طالب فسألوه إن كان رسول الله قد أجاز إجارة أبى سفيان بين الناس . فقال : لا . قالوا : ويلك ، والله إن زاد الرجل على أن لعب بك ! قال : لا والله ما وجدت غير ذلك .

لم يطمئن القرشيون إذن إلى أن أبا سفيان أتى بنتيجة ، ولكن مجرى الأخبار يدل على أنهم لم يتوقعوا سوءًا ، ولا هم جزعوا عندما علموا أن رسول الله سائر إليهم بالجيش ، وإنما هم سكنوا واستكانوا حتى دخل المسلمون مكة سِلْماً بدون قتال .

إذا ذكرنا خوف القرشيين عندما سار إليهم الرسول فى غزوة الحديبية وكيف أرسلوا طلائع تستكشف الأخبار ، وخرجت لهم طليعة بقيادة خالد بن الوليد ، ووقفت قوة منهم عند كراع الغميم وكيف كانوا يقسمون ألا يدخلها عليهم

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٧٩٥ .

المسلمون أبداً ، وكيف كان تشددهم فى مفاوضات الحديبية . إذا ذكرنا ذلك كله كيف وقفت قريش ساكنة ورسول الله ﷺ يسير نحوهم فى عشرة آلاف رجل نصفهم تقريباً من قبائل لا يستطيع القرشيون أن يطمئنوا إليها ، هذا بالإضافة إلى المهاجرين والأنصار ورجال أمة المدينة . فكيف سكن القرشيون واطمأنوا وهم يعرفون أن هذا الجيش اللَّجب فى الطريق إليهم ؟ وأكثر من ذلك : لقد تم للمسلمين دخول مكة بسلام تام تقريباً لم تَشُبْه إلا مناوشة صغيرة لقيتها قوة خالد بن الوليد وهى داخلة مكة من الجنوب . وإنه لمن غرائب الأمور أن تكون قوة خالد بن الوليد بالذات هى التى استخدمت القوة ، وخالد قبل عامين اثنين كان رئيس الطليعة التى خرجت لتستطلع أمر المسلمين فى غزوة الحديبية .

لا يسع المؤرخ فى هذه الحالة إلا أن يفترض أن شيئاً ما قد حدث ، وأن اتفاقاً قد تم على أن تعتبر مكة مدينة مفتوحة ليدخلها المسلمون دون قتال ، هنا لابد أن ننظر إلى سفارة أبى سفيان إلى المدينة نظرة أخرى ، فإن سياق الخبر عند مؤرخينا يدل على أنها لم توفق إلى شىء ، وأنِ أبا سفيان ذهب وعاد دون نتيجة . ولكن واقع الحوادث يدل على أنه عاد بنتيجة هى أفضل مما ذهب من أجله فقد ذهب ليفاوض رسول الله ﷺ فى أمر مد المدة أى تجديد الهدنة وانتهى الأمر بدخول المسلمين مكة دون قتال ، ثم دخولها فى الإسلام .

هنا لابد أن نفسر ما جرى لأبى سفيان فى المدينة تفسيراً جديداً ، فإن الرجل لم يجد من أحد ممن لقيه هناك عداوة . حقاً لقد رفض كل من أراد التحدث إليهم أو التشفع بهم لدى رسول الله ، أن يقدم إليه أى خدمة ، ولكن أحداً كذلك لم يَلْقَه بعداوة أو سوء مقال وعلى بن أبى طالب نصحه بأن يجير بين الناس « فقام أبو سفيان فى المسجد فقال : أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس ! ثم ركب بعيره فانطلق » .

ونلاحظ هنا أنه أجار بين الناس ثم انطلق راجعاً إلى مكة ، ومعنى ذلك أن الإجارة لم تكن للإقامة فى مكة ، بل لشىء آخر أى أنه بذلك جعل نفسه جاراً لأمة المدينة ، أى أنه عصم نفسه وأصبح له حق الجوار ، ورسول الله لم ينكر ذلك ، إنما كان كل ما قاله له : « أنت تقول ذلك يا أبا سفيان ؟ » وهذا قول لا يعنى الرفض أو القبول ، ولكن أبا سفيان فسَّره على أنه إقرار للإجارة .

والسؤال الآن : ما معنى هذه الإجارة ؟ لقد بارح الرجل المدينة ومضى فانتهى بذلك حقه فى الجوار فى المدينة ، ولكن الذى نستنتجه هو أن أبا سفيان طلب الإجارة لنفسه بصفته سفيراً لأهل مكة ، وإجارة السفير معناها إجارة أهل مكة جميعاً ، وهذا هو الذى نفهمه من واقع الأحداث ، فإن أهل مكة اعتبروا أنفسهم فى جوار رسول الله أى فى حمايته ولهذا قروا مكانهم آمنين ساكنين عندما بلغهم أن رسول الله والمسلمين فى الطريق إليهم ، وكذلك اعتبروا إجارة أبى سفيان لنفسه إجارة لأهل مكة جميعاً ، فهو سفيرهم والمتحدث باسمهم ، وقد كان أبو سفيان قد وفد إلى المدينة لتجديد الصلح بعد أن أهدرته قريش ولم يوافق الرسول ﷺ على ذلك وقرر المسير إلى مكة ، ولكنه اعتبر طلب أبى سفيان إجارة أمة المدينة إعلاناً لاستسلامه واستسلام قومه معه ، فهو سفيرهم والمتحدث باسمهم .

وعندما عاد أبو سفيان إلى مكة واجتمع بأصحابه وأعلن إليهم نتيجة ما وصل إليه أنكر بعض المتطرفين منهم ذلك وحاولوا الاعتراض . ولابد أن نتصور هنا أن أبا سفيان أفهمهم بأن الاستسلام هو الحل الوحيد الباقى أمامهم لأنهم لا يستطيعون الوقوف فى وجه المدينة ، وإذا هم حاولوا التعرض لجيش المسلمين فإن النتيجة ستكون القضاء عليهم وإلحاق الضرر البالغ ببلدتهم ، ورسول الله لا يريد ذلك ولو صفاءً ، ولكنه قَبِل – ضمناً – أن تكون مكة وأهلها فى جواره وجوار أمة الإسلام .

وليس لدينا نص صريح يؤيد هذا التصور ، ولكن الذى يؤيده ، هو الواقع التاريخى الذى كان ، فقد وقف أهل مكة ساكنين وقد فتحوا أبواب مدينتهم ودخل المسلمون دخولاً سِلْمياً منظماً . وعندما دخلوا نادى مناديهم أن من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل بيته وألقى سلاحه فهو آمن . أما إعلان الرسول أن من دخل بيت أبى سفيان فهو آمن ، فهو ليس تكريماً خاصاً لأبى سفيان كما يظن ، وإنما هو توكيد للحقيقة التى ذكرناها ، وهى أن أبا سفيان فى جوار أمة الإسلام وجواره ، هذا ينسحب على مكة بما فيها ومن فيها إلا من أقدم على نقض الجوار .

وقد دخل الرسول ﷺ مكة سلماً فلم يقع إلا القتال اليسير فى ناحية الجنوب . وبذلك تكون سفارة أبى سفيان هى التى هيأت الطريق لدخول مكة ، وأهلها فى أمة

الإسلام . وقد سبق أن لاحظنا أن هذا ما كان الرسول يرجوه . فقد ظل يضيق على مكة ويقطع تجارتها وأواصر صداقاتها وأحلافها حتى افتقرت وضعفت ولم تعد تستطيع المقاومة . فلما أحس الرسول بذلك اختبر قوة المكيين فى غزوة الحديبية ، ثم قام بالعمرة . وفى الفترة بين صلح الحديبية والعمرة انفتح الباب بين مكة والمدينة وزال الحرج عن أهل مكة فى دخول الإسلام فدخلوه أفواجاً ، وحقت كلمة الله سبحانه . والمسلمون عندما ساروا إلى مكة كانوا يعرفون أنهم يسيرون نحو بلد أسلم معظم أهله واشرأبت نفوسهم لدخول أمة الإسلام ، ولابد أن قادة أمة الإسلام أفهموا رجالهم ذلك ، فتم الفتح على الصورة الكريمة الحاسمة التى تم بها .

والآن وقد قدَّمنا تصورنا العام لهذا الحدث العظيم ، فلنقف بعض الوقت عند التفاصيل :

١ - عندما أزمع رسول الله فتح مكة لم يعلن حتى عن خروجه ، وأبو بكر لم يعرف ذلك إلا عن طريق عائشة ، وكل ما علمه هو أن الرسول خارج للغزو ، أما وجهته فلم يعلمها إلا فيما بعد .

٢ - ومع ذلك فإن النصوص تقول إن الرسول دعا ربه قبل خروجه فقال : اللهم خذ على قريش أبصارهم فلا يرونى إلا بغتة ، ولا يسمعون بى إلا بغتة .

٣ - وأخذ الرسول بالأثقاب أى أمر بحراسة مخارج الطرق من المدينة إلى كل وجه ، وعهد إلى عمر بن الخطاب فى ذلك الأمر ، فلا يخرج رجل من المدينة قط ، ومعنى ذلك أن الخبر كان معروفاً بالمدينة ، والذى قصد إليه الرسول هو ألاَّ يخرج أحد بالخبر إلى أهل مكة .

وهذا كله يعنى ضمناً أن رسول الله أعلن نيته على الفتح لكبار أصحابه الموكلين بالتنظيم والحاملين للمسئولية من بعده .

٤ - وفى هذه المناسبة وقعت حادثة حاطب بن أبى بلتعة الذى كتب رسالة إلى قريش جعلها مع امرأة من مزينة ، ويُفهم من هذا الخبر أنه كان من المعروف فى المدينة كلها أن رسول الله يريد مكة ولم يلبث الرسول - بناء على ما يقوله رواتنا

- أن أعلن نيته إلى أبى بكر وطلب إليه أن يكتمها . وسِرُّ الحرص على الكتمان هنا هو ألا يتسرع أحد .

٥ - ولكى تظل وجهته سراً أرسل جماعة يقودها أبو قتادة بن ربعى إلى بطن إضم - ماء على الطريق بين مكة واليمامة - ليظن الناس أنه ذاهب فى ذلك الوجه . وتقول النصوص : إن ظنون الناس ذهبت إلى أن الرسول خارج إما إلى قريش أو إلى هوازن أو إلى ثقيف ، ولكن معرفة حاطب بالأمر تدل على أن الرسول لم يكتم الخبر إلا ريثما استقر عزمه ، وهنا أعلنه ولكنه أراد أن يظل الأمر فى المدينة فقط فلا يخرج الخبر منها إلا فى وقت متأخر ، ويؤيد ذلك قول الواقدى لَمَّا أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى قريش وعلم بذلك الناس كتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله ﷺ .

٦ - وتقول النصوص : إن حاطباً كتب إلى ثلاثة نفر من قريش : صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل ، فلماذا لم يكتب إلى أبى سفيان بن حرب ، وهو الذى كان إذ ذاك رأس قريش ؟

٧ - وتقول النصوص إن الخروج كان يوم الأربعاء ١٠ رمضان سنة ٨هـ ، والعاشر من رمضان هنا يقابل ١ يناير ٦٢٨م ، وهو يوم اثنين ، لا يوم أربعاء .

٨ - ويروى الواقدى أن الرسول قال عند خروجه : إنى لأرى السحاب تستهل بنصر بنى كعب ، وهذا تصريح لا لبس فيه ، فبنو كعب الخزاعيون هم ضحية عدوان بنى بكر بن عبد مناة ومن أيَّدهم من قريش .

٩ - وكان رسول الله قد بعث إلى كل من أسلم ومن كان فى حلف الأمة من القبائل رسلاً يُعْلِمونهم أنه خارج للغزو ، والنصوص تقول إن الرسل لم يصرحوا بوجهة الغزو ولكن ذلك مستبعد ، فإن القبائل لا تشترك فى غزو إلا إذا عرفت الوجهة .

١٠ - ونخرج من ذلك أن الكتمان والتعمية لم تستمر إلا قليلاً ، ثم لم يلبث الأمر أن شاع ، وهذا هو البيت الأساس فى أن رسول الله ﷺ لم يشتد غضبه على حاطب

ابن أبى بلتعة . ومنذ خروج الرسول من المدينة على الأقل عرف الناس أجمعون إلى أين يقصد ، بدليل أن بعض جماعات القبائل انضمت إلى الجيش على الطريق والقبائل التى أرسل إليها الرسول واستجابت هى : أسلم من خزاعة - جهينة - غفار - ضمرة - أشجع - مزينة - سليم بن منصور - بنو كعب بن عمرة (من بنى كعب بن خزاعة وهم المعتدى عليهم) .

١١ - عسكر الرسول عند بئر أبى عنبة خارج المدينة وهناك فرق الرايات والألوية ، وإليك بيان الألوية والرايات وأسماء حامليها :

المهاجرون : ٣ رايات مع الزبير وعلى وسعد بن أبى وقاص :

الأوس :

بنو عبد الأشهل	راية مع أبى نائلة
بنو ظفر	راية مع قتادة بن النعمان
بنو ظفر	راية مع أبى بردة بن نيار
بنو معاوية	راية مع جبر بن عتيك
بنو خطمة	راية مع أبى لبابة بن عبد المنذر
بنو أمية	راية مع مبيض أو نُبَيْض
بنو ساعدة	راية مع أبى أسيد الساعدى
الخزرج : بنو الحارث بن الخزرج	راية مع عبد الله بن زيد
بنو سلمة	راية مع قطبة بن عامر بن حديدة
بنو مالك بن النجار	راية مع عمارة بن حزم
بنو مازن بن النجار	راية مع سليط بن قيس
بنو دينار بن النجار	راية يحملها ؟

وهذا بيان ناقص جداً فيما يتصل بالمشتركين فى الفتح من الخزرج ، فلا شك أنهم كانوا أكثر من ذلك بكثير ، خاصة وأن عدد الأنصار المشاركين فى الفتح كانوا ٤٠٠٠

أى خُمْس رجال الفتح ، فى حين أن المهاجرين بلغوا سبعمائة أى أقل من العُشْر ، فيهم ٣٠٠ فارس . أما فرسان الأنصار فكانوا ٥٠٠ فارس .

ويبدو أن هذا التقدير لأعداد المهاجرين مبالغ فيه بعض الشىء ، فمهما تصورنا زيادة أعداد المهاجرين إلى المدينة فإن عدد الرجال المقاتلين منهم لا يمكن أن يصل إلى هذا العدد ، ويمكن قبول هذا الرقم إذا تصورنا أنه يضم كل من هاجر إلى المدينة من المسلمين ، لا من قريش فحسب .

أما مساهمات القبائل الأخرى فكانت تشمل نصف الجيش الإسلامى على وجه التقريب . ومن المفيد هنا أن نذكر أسماء القبائل التى اشتركت وأعداد من اشترك منها وقادة قواتها ، لأن ذلك يدل على أن كفة المدينة كانت قد ثَقُلَت فعلاً فى الحجاز وشالت كفة قريش ، وكانت هى الراجحة فيما مضى ، وهذا يفسر لنا من بعض الوجوه لماذا وجد القرشيون الكفار أن أسلم الحلول لهم ولمدينتهم هو أن يعلنوها مدينة مفتوحة ، ويدعوا المسلمين ليدخلوها دون قتال كما دعاهم إلى ذلك أبو سفيان.

وإليك بيان المشتركين من القبائل من غير قريش والأنصار :

مُزَينة ١٠٠٠ مقاتل منهم ١٠٠ دارع فى ٣ ألوية :

لواء مع النعمان بن مقرَّن

لواء مع بلال بن الحارث

لواء مع عبد الله بن عمرو

أسلَم (من خزاعة) ٤٠٠ منهم ٣٠ فارساً فى لواءين :

لواء يحمله بريدة بن الحُصيب

لواء يحمله ناجية بن الأعجم

جهينة ٨٠٠ معهم ٥٠ فارساً فى أربعة ألوية :

لواء مع سُوَيْد بن صخر

لواء مع ابن مكيث

لواء مع أبى زرعة

لواء مع عبد الله بن بدر

كعب بن عمرو (من خزاعة) ٥٠٠ فيهم ٣ ألوية :

لواء مع بشر بن سفيان

لواء مع ابن شريح

لواء مع ابن عمرو بن سالم ولم يكن خرج معه من المدينة ، لقيه قومه بقديد

وهذا أيضاً بيان ناقص ، فهؤلاء جميعاً لا يُكوِّنون الخمسة آلاف الذين تكوَّن منهم الجيش بالإضافة إلى المهاجرين والأنصار ، ولكن هذا لا ينقض الحقيقة القائلة بأن جيش الأمة الإسلامية الذى سار لفتح مكة كان مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل خُمْسهم من الأنصار وأقل من العُشْر كانوا من المهاجرين ، والمهاجرون والأنصار كانوا يُكوِّنون القوة الحقيقية لجيش الإسلام ، وما سوى هؤلاء (باستثناء الخزاعيين) لم يكن الرسول ﷺ يعول عليهم كثيراً ولكنه دعاهم وسمح لهم بالانضمام إلى الجيش لكى يُشعرهم بالاشتراك فى قوة الإسلام . وشيئاً فشيئاً سيصبحون من جند الأمة الإسلامية ، ورسول الله ﷺ كان وثيق الإيمان فى قوة الإسلام على غزو قلوب الناس. وكان بعيد النظر طويل الأناة جداً فى معاملة الناس ؟ وسنرى كيف أنه سيسلك مع القرشيين المكيين وسواهم ممن دخل أمة الإسلام عام الفتح وبعده أكرم المسالك وخاصة خلال عام الوفود ، وهو عام ٩ للهجرة .

١٢ - ولم يقف أحد إلى جانب قريش حتى بنو بكر بن عبد مناة وهم الذين نقضوا العهد ، لم يحركوا ساكناً والرسول فى طريقه إلى مكة ، مما يدل على أن قريشاً كانت قد جُرِّدت من كل نصير لها . وسيكون بعد فتح مكة قتال ، بين الإسلام وهوازن ثم ثقيف ، ولكن لا هؤلاء ولا أولئك تحركوا لنصرة قريش وإن كانت المصادر تشير إلى حديث لبعض سادة القبائل فى هذا المعنى ولكنها مجرد إشارات أشبه بالشائعات . والثابت على أى حال أن هوازن عندما سمعت بتحرك الرسول ﷺ ملكها الخوف واهتمت بأن تعرف ما إذا كان هذا المسير مُوجَّهاً إليها .

والذى يستوقف النظر ويهز المشاعر هو تلك الرياسة المهابة به التى كانت لرسول الله ﷺ ، فهذا أضخم جيش عرفته الجزيرة فى تاريخها ولكنه يسير فى نظام وهَيْبة ، ويمر الجيش اللجب بالمنزل بعد المنزل وبمنازل القبائل ، فلا عدوان ولا نهب ولا حتى مفاخرة ، بل بلغ من حرص الرسول على النظام وتمكُّنه من فرضه أن الجيش عندما مر بين العرج والطلوب « نظر (النبى) إلى كلبة تهر على أولادها وهم حولها يرضعون ، فأمر رجلاً من أصحابه يقال له جعيل بن سراقة أن يقوم حذاءها كى لا يعرض لها أحد من الجيش ولا لأولادها »[1] . وهذا فى ذاته دليل على حنو الرسول ﷺ وإنسانيته ويدعو إلى التفكير فى أولئك الذين يزعمون أن الرسول ﷺ كان يكره الكلاب أو ينفر منها ويفضل عليها القطط .

١٣ - وكان النبى قد رأى أن الحزامة تقضى بأن يدعو الأعراب من أحلاف الأمة حتى يكونوا فى عداد المقاتلين النظاميين فلا يتصرفون على هواهم ، ولهذا فقد طلب إلى من يريد المشاركة منهم أن يفد إلى المدينة أوائل رمضان . وعندما خرج بالناس من المدينة ترك الناس على علاتهم حتى وصل الصلصل على سبعة أميال (حوالى ١٢ ك) من المدينة ، وهنا أراح ونظم الناس وركب الإبل والخيل من معهم إبل وخيل ، وأرسل الزبير بن العوام طليعة فى مائتى فارس ، وبعد قليل عندما وصل إلى البيداء لَمَّح إلى وجهته تلميحاً فقال : « إن السحاب تستهل بنصر بنى كعب » (من خزاعة) وهم الذين وقع عليهم عدوان بنى بكر بن عبد مناة وحلفائهم من القرشيين ونادى مناديه : « من أحب أن يصوم فليصم ، ومن أحب أن يفطر فليفطر » وتلك رخصة منه سيجعلها عزيمة عندما يقترب من مكة للتخفيف من جهد الناس وهم مقبلون على فتح ، فمع أن الوقت كان شتاء إلا أن السير فى الشمس مجهد ، وعند العرج « يصب الماء على رأسه ووجهه ليخفف من العطش »[2] .

١٤ - ومع وضوح التلميح الذى صدر عن رسول الله ، إلا أن هوازن ملكها الفزع

---

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٠٤ .

(٢) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٠١ .

وخافت أن يكون المسير إليها فترسل عيناً يتبع المسلمين ، ويكتشفه بعض المسلمين والجيش يمضى بين العرج والطلوب ، ويمسكون به فيزعم أنه عابر سبيل من غفار ، فلا يزال المسلمون يستجوبونه حتى يفصح عن حقيقة نفسه بعد أن رأى العزم من المسلمين على استخراج الحقيقة ، فأقرَّ بحقيقة نفسه ، وكان الذى استجوبه هنا رسول الله ﷺ نفسه وقد كشف الرجل الكثير ، فعرف الرسول أن هوازن كانت تخشى أن يكون مسيره إليها وأن جاسوسها هذا كان عليه أن يراقب الجيش من بعيد ، فإذا سلك وادى سرف كان معنى ذلك أن رسول الله يفضى إلى بلاد هوازن ويهاجمها ، وإذا تابع طريق الجادة فتكون وجهته مكة وقريش ، وعلم الرسول كذلك أن هوازن هى التى انتابها الخوف فبعثت تحرض العرب و « أجلبوا فى العرب ، وبعثوا إلى ثقيف ، فأجابتهم فتركت ثقيفاً على ساق قد جمعت الجموع ، وبعثوا إلى الجرش (من أقصى مخاليف اليمن إلى الشمال) فى عمل الدبابات والمنجنيق وهم سائرون إلى جمع هوازن فيكونون جمعاً » .

قال رسول الله ﷺ : وإلى من جعلوا أمرهم .

قال : إلى فتاهم مالك بن عوف (شيخ هوازن وقائدها فى حنين) .

قال رسول الله ﷺ : وكل هوازن قد أجابت إلى ما دعا إليه مالك .

قال : قد أبطأ من بنى عامر أهل الجِدِّ والجَلَد .

قال : من ؟

قال : كعب وهلال .

قال رسول الله ﷺ : ما فعلت هلال ؟

قال : ما أقل من ضوى إليه منهم . وقد مررت أمس بمكة ، وقد قدم عليهم سفيان بن حرب ، فرأيتهم ساخطين لما جاء به ، وهم خائفون وجلون .

فقال رسول الله ﷺ : حسبنا الله ونعم الوكيل ، ما أراه إلا صَدَقَنى (يقصد الجاسوس) .

قال الرجل : فينفعنى ذلك ؟فأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يحبسه ، وقد حاول الرجل الفرار ولكن خالداً قبض عليه واستبقاه ، ثم أسلم بعد ذلك واستشهد فى حنين .

المهم أن رسول الله هنا سأل عن ثقيف وهوازن وهلال ، ولكنه لم يسأل عن قريش كأنه كان يعرف حقيقة موقفها . وكان الرجل هو الذى تطوع فقال له إنه مر بمكة ووجد قريشاً ساخطة على ما جاءهم به أبو سفيان . ومع أن النصوص تقول هنا إن أبا سفيان عاد إلى مكة صفر اليدين إلا أننا نرى هنا أنه عاد بشىء ، وهم لم يطمئنوا إلى ما قال لهم ، ولهذا فقد كانوا خائفين وجلين ، والذى جاءهم به هو الاتفاق على التسليم وعدم القتال أى اعتبار مكة مدينة مفتوحة بحسب التعبير الحديث ، ومن الطبيعى أن يكونوا ساخطين لذلك ، ولكنهم راضون به ، ومن الطبيعى أن يكونوا ساخطين وَجِلين ، فإن أىَّ مدينة فى الدنيا لا تكون خائفة وجلة وجيش عدته عشرة آلاف مقاتل فى الطريق إليها . حقاً إنها استسلمت ولكن من يطمئن إلى الجنود وفيهم من الأعراب ألوف ؟

وإذن فالأدلة كلها تدل على أن أبا سفيان حصل لمكة وقريش من رسول الله على أمان ، وعندما نادى فى الناس أنه يجير بين الناس فلم تكن الإجارة له شخصياً ، بل كانت إجارة لمكة وقريش ، ويكون على بن أبى طالب عندما نصح أبا سفيان بأن يجير بين الناس قد فعل ذلك برأى الرسول ﷺ ، لأنه لم يكن يريد تحطيم قريش ولا إيذاء مكة ، وكان إدخال مكة فى جوار أمة الإسلام يوافق رأى الرسول ، وعندما قال الرسول لأبى سفيان : أنت تقول ذلك يا أبا سفيان أراد أن يقول له : إنك طلبت الإجارة ، ولكنك أنت لست كل قريش ، فعليك أن تضم القرشيين إلى رأيك ، ويكون أبو سفيان عندما عاد قد جاءهم بهذا الجوار ، الجوار يسخطهم وإن كان يُؤمِّنهم ، وقوم مثل القرشيين لا يستسلمون دون سخط بعد العزة والكبرياء وشموخ الأنف ، يقفون ساكنين .

ومن نيف وعام فحسب عندما سار الرسول إليهم معتمراً فى ١٤٠٠ رجل غير مسلمين أخذتهم العزة وأقسموا ألا يدخلونها عليهم قط ، وخرجوا للقائه معهم

النساء والأطفال (العوذ المطافيل) : ويومها قال الرسول : ويح قريش ، أكلتهم الحرب إذ لو خلوا بينى وبين العرب إلى آخر حديثه الذى رويناه آنفاً ، أما الآن فإن تعليقه : حسبنا الله ونعم الوكيل ، ومعناه حسبى الله فى قريش ، حتى هذا لا يرضيهم، والمراد سادتهم المعاندون .

١٥ - وإذن فيكون أبو سفيان بن حرب قد أنقذ قريشاً بذهابه إلى مكة . حقاً إن الرسول ما كان ليأذن بأن يصيب مكة بأذى ، ولكن استسلام قريش سهَّل له هذه المهمة وطمأنه على مصير القرشيين ممن أسلم وآمن وطوى إسلامه . وفى سورة الفتح آيات (٢٢ - ٢٥) تشير إلى ذلك صراحة ونصها : ﴿ **وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)** ﴾. حقاً إن الآيات تشير إلى ما كان فى الحديبية ، ولكن المؤمنين الذين كانوا فى مكة ولا يعلم المؤمنون بأمرهم كانوا لا يزالون موجودين عند فتح مكة .

١٦ - وعندما مر رسول الله ﷺ بقديد لقيه بنو سليم بن منصور وهم بين التسعمائة والألف ، مع كل منهم رمحه وسلاحه ، ومن كان فارساً فمعه فرسه ، فشكوا إليه أنه يقصيهم ويستغشهم مع أنهم أخواله ، وغريب منهم أن يمتُّوا إليه هنا بالخئولة ، فيذكرون أن أم هاشم بن عبد مناف هى عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان من بنى سليم ، وبنو هلال بن فالج هؤلاء غير بنى هلال بن عامر بن صعصعة الذين تزوج الرسول منهم امرأتين ، هما زينب بنت خزيمة ابن الحارث ، وميمونة بنت الحارث ، وكلتاهما من أمهات المؤمنين . وسألوه أن يقبلهم فى صفوف رجاله ليرى حُسْن بلائهم ، فقبلهم الرسول وجعلهم فى المقدمة مع خالد بن الوليد ، ولم يكن بنو سُليم من قبل بأهل إيمان صحيح ،

وقد طالما آذوا أهل الإسلام ، ولكن هذه كانت ساعة الرضى والعفو والتصافى، وما داموا قد أظهروا حسن النية فلماذا يرفضون ؟

وقد غاظ قبول رسول الله لبنى سليم عيينة بن حصن شيخ فزارة وغطفان ، وكان عندما سمع بخروج رسول الله إلى مكة قد عمل للحاق به مع نفر من قومه وسار فى المؤخرة ، وكان رسول الله يسير مع أبى بكر وعمر ، وكان العباس بن مرداس شيخ بنى سليم قد لقى الرسول عندما هبط من المشلل فى طريقه إلى قديد ومعه آلة الحرب ، والحديد ظاهر علينا والخيل تنازعنا الأعنة ، فصففنا لرسول الله ﷺ - والمتكلم هنا هو العباس بن مرداس - (فقال العباس) : يا عيينة « هذه بنو سليم قد حضرت بما ترى من العُدَّة والسلاح ، وإنهم لأحْلاس الخيل ورجال الحرب ورعاة الحدق فقال عيينة بن حصن [1] : أقصر أيها الرجل فإنك تعلم لنحن أفرس على متون الخيل وأطعن بالقنا وأضرب بالمشرفية منك ومن قومك » . وقد حسم الرسول هذا التنازع بين الشيخين القبليين بإشارة بيده ، وهكذا نرى هؤلاء الأعراب يتنافسون على المكانة عند رسول الله والمؤمنين ، والرسول يهذب من طباعهم ويؤدبهم بأدبه ، ويكفُّهم عن ذلك التنافس الجاهلى .

١٧ - وبعد هذا يظهر فى النصوص تحريف الأخبار الذى يُقصد منه إلى تعظيم أمر العباس بن عبد المطلب ، والغض من شأن أبى سفيان . والأخبار تقول : إن العباس لقى رسول الله ﷺ عند الجحفة . قال ابن هشام (لا ابن إسحاق) «لقيه بالجحفة مهاجراً بعياله وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته ، ورسول الله ﷺ راض فيما ذكر ابن شهاب الزهرى » [2] . ولسنا نعلم كيف يكون الرسول راضياً عنه وهو يعلم أنه إلى ذلك الحين كان مقيماً على حاله فى مكة مرابياً ، وكان أول ربا وضعه رسول الله ﷺ فى خطبة الوداع ربا العباس ، ولو كان أقلع عنه من زمن لما كانت بالرسول حاجة إلى أن يسقطه فى خطاب خطير مثل حجة الوداع . وسنستطرد مع الأخبار لنرى كيف أن سلطان بنى

(١) فى الأصل المطبوع : العباس بن مرداس ولا يستقيم به الكلام ، والغالب أنه وهم من الناسخ فصوبناه على ما ترى فى المتن وقد اختلط الأمر على المحقق الأريب هنا ، والعبارة فى الأصل قلقة على أى حال .
(٢) سيرة النبى لابن هشام ٤/ ٤٢ .

العباس قد عمل عمله فى إظهار العباس بأنه كان من أقرب الناس إلى رسول الله ، وأنه أفضل من أبى سفيان مع أنهما من حيث السابقة إلى الإسلام سواء ، كلاهما أسلم عند الفتح ، بل قد رأينا أن أبا سفيان بسياسته وحُسْن تصرفه كان صاحب الفضل فى تمام فتح مكة على الصورة الكريمة التى تم بها ، دون أن تكون هناك حرب أو مهانة لقريش .

١٨ - ويقول الواقدى : « واجتمع المسلمون بمرِّ الظهران ولم يبلغ قريشاً حرف عن مسير رسول الله ﷺ إليهم فقد اغتموا وهم يخافون بغزوهم رسول الله ﷺ ، فلما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران عشاء ، أمر أصحابه أن يوقدوا النيران فأوقدوا عشرة آلاف نار . فأجمعت قريش بعثة أبى سفيان بن حرب يتحسب الأخبار فقالوا : إن لقيتَ محمداً فخذ لنا منه جواراً إلا أن ترى رقة من أصحابه فأذنه بالحرب ، فخرج أبو سفيان وحكيم بن حزام ، فلقيا بديل بن ورقاء فاستتبعاه فخرج معهما ، فلما بلغوا الاراك من مر الظهران رأوا الأبنية والعسكر والنيران وسمعوا صهيل الخيل ورغاء الإبل ، فأفزعهم ذلك فزعاً شديداً وقالوا : هؤلاء بنو كعب جاشتها الحرب (أى جمعتها وساقتها) ، فقال بديل : هؤلاء أكثر من بنى كعب ! فتنجّعت هوازن على أرضنا (أى دخلتها) والله ما نعرف هذا ، أن هذا العسكر مثل حاج الناس » .

وهذا كلام لا يُساق إلا على افتراض الغفلة فى القارىء ، فكيف يصدق أن قريشاً على ما نعلم من يقظتها وفطنة رجالها يخفى عليها أمر مسير رسول الله وجيشه الضخم حتى بلغ مر الظهران ، مع أن هوازن وهى دون قريش يقظة وتنظيماً أحست بذلك وأرسلت عيناً لها ليتبع جيش الإسلام ويعرف إلى أين يمضى ، حتى غطفان وسليم ابن منصور عرفتا بالأمر وقد رأينا إسراعهما للانضمام إلى جيش الإسلام وتنافسهما فى ذلك ، ثم إن ابن إسحاق قرر صراحة أن رسول الله أعلم الناس بأنه سائر إلى مكة قبل فصوله عن المدينة ، فقد قال برواية ابن هشام : « ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس بأنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ . وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش

حتى نبغتها »[1] وكان من الطبيعى أن ينتشر الخبر بعد ذلك ويعلمه كل الناس .

وأما حكيم بن حزام فهو ابن خويلد بن أسد بن عبد العزى وهو ابن أخى خديجة أم المؤمنين وقد تأخر إسلامه فعلاً ، إلا أن إسلامه صح بعد ذلك . أما القول بأن أبا سفيان وحكيم اصطحبا بديل بن ورقاء فأمر لا يصح ، فبديل كان من زعماء خزاعة وهو من بنى عمرو الخزاعيين وهم أبناء عمومة بنى كعب الخزاعيين المعتدى عليهم وهو كان صاحب البيت الذى لجأ إليه الخزاعيون فى مكة عندما اعتدى عليهم ، وكان فى الذين ذهبوا يبلغون النبى خبر العدوان وهو مسلم صحيح الإسلام من زمن طويل ، فكيف يصطحبه أبو سفيان كأنه كان من حزبه من المشركين ؟

وأما أن قريشاً قالت لأبى سفيان عند خروجه أن يأخذ لها جواراً من رسول الله ، فنحن نعرف أنه غير معقول ، لأن أبا سفيان - كما رأينا - كان قد أخذ بالفعل الجوار لقريش عندما ذهب إلى المدينة ، وبقية الخبر التى تقول إن قريشاً قالت له إنه إذا آنس رقة أى ضعفاً من أصحاب الرسول أن يؤذنه بالحرب فأبعد عن الصواب من أى شىء سواه ، وقد سبق أن رأى رجالُ قريش بأنفسهم أثناء مفاوضات الحديبية حبَّ أصحاب محمد لمحمد وتفانيهم فى سبيله واستعدادهم لخوض المعارك بإشارة منه .

١٩ - وكل هذا التمويه تمهيداً لما يأتى بعد ذلك مما يرويه الواقدى وغيره ، فكلهم يقولون : إن العباس بن عبد المطلب بعد أن لحق بالرسول وأسلم وأصبح فى جملة رجاله : « ركب بغلة رسول الله الدل » (!) وخرج فى ظلام الليل « عسى أن يصيب رسولاً إلى قريش يخبرهم أن رسول الله داخل عليهم فى عشرة آلاف، فسمع صوت أبى سفيان فقال : أبا حنظلة ! فقال أبو سفيان : يا لبيك أبا الفضل ! قال العباس : نعم ! قال أبو سفيان : فما وراءك ؟ قال العباس : هذا رسول الله فى عشرة آلاف من المسلمين فأسلم ثكلتك أمك وعشيرتك ! ثم أقبل على حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء فقال : أسلما ، فإنى لكما جار حتى تنتهوا إلى رسول الله فإنى أخشى أن تقتطعوا دون النبى ﷺ قالوا : فنحن معك . فخرج بهم العباس حتى أتى رسول الله ﷺ فدخل عليه وقال : يا

(١) ابن هشام ، سيرة النبى ٤/ ٣٩ .

رسول الله ، أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء قد أجرْتهم وهم يدخلون عليك. قال رسول الله ﷺ : أدخلهم فدخلوا عليه فمكثوا عنده عامة الليل يستخبرهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام ، وقال : تشهدون أن لا إله إلا الله وأنِّى رسول الله ! فأما حكيم وبديل فشهدا ، وأما أبو سفيان فقد شهد أن لا إله إلا الله فلما قال : وأنِّى رسول الله قال : والله يا محمد ، إن فى النفس من هذا لشيئاً يسيراً بعد ، فأرجئها . ثم قال للعباس : قد أجرناهم اذهب بهم إلى منزلك »[1] .

وهكذا يصبح العباس الذى أسلم بالأمس ، وكان إلى قبل الأمس كافراً مرابياً داعية للإسلام وصاحب سلطان فيه ، وأبو سفيان وهو إلى هذه الساعة كان أهم من العباس وله فى توجيه الحوادث يد أصبح تابعاً يسير ذليلاً وراء العباس ! أما حكاية أن أبا سفيان توقف عن أن يشهد أن محمداً رسول الله فأشبه بالفكاهة ، فما دام الرجل قد شهد أن لا إله إلا الله فإن ذلك يستتبع الشهادة بأنه رسول الله ، فهو الذى حمل إلى الناس رسالة الوحدانية ومن غير المعقول أن أبا سفيان يرى رسول الله فى هذا الموضع الجليل ثم يعتذر عن عدم الإيمان بأنه رسول الله ، وحتى لو سلَّمنا بأن الإسلام لم يكن دخل قلبه فإن هيبة رسول الله وصحابته وجيشه لابد أن تكون قد أخذت ببصره وعقله ، ولا يمكن فى هذه الحالة أن يتأخر عن الشهادة فقد كان أفطن من هذا وأحصف ، ولكنها « وكالة الأنباء العباسية » تُوجِّه الأخبار هذا التوجيه إعلاءً لشأن بنى العباس على بنى أمية .

وإذا كان أمثال الواقدى [2] قد سلَّموا بذلك خوفاً من خليفة بنى العباس ، فما عذرنا نحن وقد أعفانا الله من ذلك الخوف ؟ ولكن أخانا الدكتور هيكل فى حياة محمد يأخذ به ويرويه بل يقول : « وتدخَّل العباس موجِّهاً القول إلى أبى سفيان أن يسلم ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقه ، ولم يجد أبو سفيان أمام هذا إلا أن يسلم فتوجه العباس بالقول إلى النبى عليه السلام وقال : يا

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨١٥ .
(٢) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨١٥ .

رسول الله ، إن أبا سفيان يحب هذا الفخر ، فاجعل له شيئاً . قال رسول الله : نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ... »[1] .

والدكتور هيكل يروى هذا الكلام ثم يقول : إن هذه الوقائع وارد عليها اتفاق المؤرخين دون أن يسأل نفسه ، هل كان من المعقول أن يأمر الرسول بضرب عنق أبى سفيان إذا لم يسلم فى التو واللحظة ، والإسلام كان يمهل الناس ليفكروا ويتدبروا ورسول الله لم يكن يقهر أحداً على الإسلام وفى القرآن آية تقول ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ (٢٥٦) ﴾[2] وبعد عامين من فتح مكة ستنزل سورة براءة التى تُنهى الكفر والشرك فى جزيرة العرب ، ولكنها تمهل الكافرين أربعة أشهر يحقُّ عليهم بعدها العقاب .

ولكن هيكلاً وطه حسين والعقاد ليسوا بمؤرخين ، إنهم رجال أدب ومفكرون نقرؤهم للأسلوب وقوة العارضة وحسن السياق ، ولكننا قط لا نقرؤهم للتاريخ ، فإن التاريخ علم له أصول ومناهج لا نتطلبها إلا من المؤرخ المتخصص لهذا الفن ، وهذا كذلك هو موقف أهل الغرب من الأدباء الذين كتبوا فى التاريخ ، هذا موقف الإنجليز من ماكولى ، والفرنسيين من فولتير ، والألمان من فردريش شيلر .

والذى يهمنا هنا هو أن سياق الأخبار على هذا النحو يؤخذ على أنه محاولة من بنى العباس لتبييض وجه العباس والغض من شأن بنى أمية ، وقد ذهبوا فى ذلك إلى حد القول بأن أبا سفيان عندما لقى الرسول فى هذه المرة كان فى جوار العباس لا جوار الرسول ﷺ ، وهذا تجوُّز فى الكلام غير محمود حتى لو لم نعلم علم اليقين ، كما رأينا أن أبا سفيان كان فى جوار الرسول ﷺ وأمة الإسلام منذ أعلن أنه فى جوارهم ورسول الله لم يردّ هذا الجوار ، وقد شمل مكة ومن فيها .

وطريف من الأمر أن العباس - كما تقول الأخبار - طلب من رسول الله أن يخلع على أبى سفيان شرفاً ، فقال : إن من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، وكان أَوْلَى

(١) محمد حسين هيكل ، حياة محمد ص٤٢٣ .
(٢) سورة البقرة - آية ٢٥٦ .

بالعباس أن يطلب هذا الشرف لنفسه ، فيقول الرسول مثلاً : ومن دخل دار العباس فهو آمن ، ولا نحسب أن العباس كان يكون سعيداً بذلك ، لأن ذلك كان يفترض أنه كان على العباس بناء على ذلك أن يطعم ويسقى ويؤوى من دخل داره ، وما كان العباس الضنين بماله أن يرضى بذلك قط ، أما أبو سفيان فمهما قلنا فيه فقد كان سيداً جاهلياً يطعم ويسقى ويقوم بمطالب الرياسة مثله فى ذلك مثل أبى جهل رغم موقفه من الإسلام ، واقرأ « المحبر » و« المنمق » لمحمد بن حبيب النسابة تجد فيه عن العباس وأبى سفيان كلاماً يؤيد ما نقول .

٢٠ - ثم يروى الواقدى رواية أخرى نجدها أيضاً عند ابن سعد والطبرى وابن هشام فى الحط من شأن أبى سفيان وتجعل العباس ينقذه من القتل على يد عمر، وتصوره مسكيناً ذليلاً يرتجف فَرَقاً من الموت لا يحميه إلا العباس الذى أصبح بين عشية وضحاها فى مقدمة أصحاب رسول الله ﷺ .

٢١ - وبقية الخبر بعد ذلك لا تخلو من سذاجة وهى تدل على انعدام مَلَكة النقد عند مؤرخينا القدامى ، فهم يرددونها جميعاً على عواهنها ، وخلاصتها أن رسول الله ﷺ أمر العباس أن يأخذ أبا سفيان ويحبسه « بمضيق الوادى إلى خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها » ، ونحن لا نعرف أين هو ذلك المضيق ، ولا ما هو خطم الجبل المقصود هنا ، ولكن الزرقانى صاحب الشرح المعروف على المواهب اللدنية للقسطلانى يقول : إن خطم الجبل هو أنف الجبل ، وهذا هو تفسير الماء بعد الجهد بالماء كما يقولون ، فإننا نعرف أن الخطم عامة هو الأنف ولكن الذى لا نعرفه ولا نفهمه هو أنف الجبل ، والقسطلانى كتب شرحاً للسيرة يسمى المواهب اللدنية ، ثم جاء الزرقانى فكتب شرحاً للشرح ، فهو شرح على شرح على صياغة معدلة محرفة لسيرة ابن إسحق وقد ضاع نص المواهب اللدنية ، فنحن لا نعرفه إلا من شرح الزرقانى له ، وكل من الرجلين يعرف كل كبيرة وصغيرة ولا يقول : لا أعرف قط ، فإذا غُمَّ عليه اسم موضع قال لك : موضع بين مكة والبصرة ! واذهب أنت وليعنك الله سبحانه على العثور على ذلك المويضع فى مسافة تزيد على الألفى كيلو متر .

والخبر يقول إن العباس (العظيم) وقف على مرتفع فى المضيق وإلى جانبه أبو سفيان ضئيلاً متخوفاً ، وكلما مرت فرقة من فرق الجيش كبَّرت ثلاثاً ، وسأل أبو سفيان : من هؤلاء ؟ فيجيب العباس هؤلاء بنو فلان ، هؤلاء بنو علان كأن العباس الذى أسلم ولحق بالرسول قبل أبى سفيان ربما بساعات قد أحاط بتكوين جيش الإسلام قطعة قطعة ، وجماعة جماعة بمجرد إسلامه ، كأنه هو صاحب هذا الجيش ومُرتِّبه وصاحب قياده ، وهذا فى النهاية هو ما يرمى إليه أصحاب هذه التحريفات .

٢٢ - وندع هذا كله لنقول : إن رسول الله ﷺ دخل مكة دخولاً سِلْمياً هادئاً منظماً على نحو ربما كان فريداً فى بابه فى التاريخ ، فضلاً عن العصور القديمة والوسيطة ، فأما فى العصرين القديم والوسيط فلم يحدث قط أن دخل جيش - أياً كان - مدينة إلا نهبها وعصف بأهلها حتى الجيوش العائدة إلى بلادها كانت تنهب بلادها نفسها ، وفى مواكب الملوك والسلاطين كان الناس يقفلون البيوت خوفاً من معرة الجند ، وأما فى العصر الحديث فلم تسلم مدينة قط دخلها جيش مهما كان نظامياً من سلب ونهب وقتل وانتهاك أعراض . ولكن جيش الإسلام دخل مكة دخولاً هادئاً منظماً لأنه لم يكن جيش دولة ، إنما كانت أمة مؤمنة تحولت إلى جيش إيمان ومحبة وسلام ، ورسول الله دخل مكة دخول نبى الإسلام يحمل معه السلام .

وإن الإنسان ليعجب من هذا النظام الجليل الذى دخلت به الجيوش الأربعة وعليها : الزبير بن العوام ، وخالد بن الوليد ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، وسعد بن عبادة ، وقد جعله الرسول صاحب راية الجيش الذى هو فيه إعزازاً للأنصار ، ثم بدرت من سعد بن عبادة بادرة زهو ربما لم يكن وراءها شر، فقد قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، وخافها المسلمون وأبلغوا الرسول فأخذ منه الراية وأعطاها لابنه قيس ، ولم يغضب سعد فإن الراية إذا كانت فى يد ابنه فهى لم تخرج من يده ، ولم يحدث قتال إلا فى جيش خالد الذى دخل من الجنوب أى من الليط ، لأن الخائفين المفزَّعين الذين سنشير إليهم تجمعوا هناك .

وهذا التنظيم كله وضعه النبى ﷺ عندما وقف الجيش بذى طوى موضع بشمال

مكة ، ثم تقدم بمن معه إلى أذَاخِر ، ومن ثَمَّ سارت الجيوش فى نظام تام . وكان أبو سفيان وحكيم بن حزام قد سارا فى طرق مكة يصيحان فى الناس ألا يخافوا ، فمن دخل داره فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، فعجل الناس بدخول بيوتهم ، ودخلت الجيوش دخولاً سهلاً لا عنف فيه .

وقبل أن يدخل الرسول فى نفر من أصحابه فى آخر الجيش وقف بذى طوى وتوسط الناس وإن عثنونه (لحيته) ليمس واسطة الرحل أو يقرب منه تواضعاً لله سبحانه وتعالى حين رأى ما رأى من فتح الله وكثرة المسلمين ، ثم قال : العيش عيش الآخرة ثم تحرك ودخل مكة حتى وصل الحجون حيث كان الزبير بن العوام قد عزز راية الرسول وضرب له قبة ، ومر الرسول فى طريقه بشِعْب بنى هاشم أى حَيِّهم ، وكانت فيه داره ، ودُعى إلى دخول الشِّعْب والنزول فى أحد دور بنى هاشم فقال قوله المشهور : وهل أبقى لنا عقيل من دار ، وعقيل كان أخاً لعلى بن أبى طالب وكان قد بقى فى مكة وباع ديار بنى هاشم داراً داراً ، وأبى رسول الله أن ينزل فى أى بيت وإنما استقر فى قبته فكانت هى منزله أثناء مقامه عند الفتح ولم يكن رفض الرسول النزول فى أحد بيوت بنى هاشم راجعاً إلى أن عقيلاً باعها ، وإنما كانت للرسول من وراء ذلك حكمة أبعد ، فقد خشى إن هو نزل فى بيت من بيوت بنى هاشم أن يدخل المسلمون بيوت الناس ، فآثر النزول فى القبة التى ضُرِبت له محافظة على بيوت المكية من معرة نزول المقاتلين فيها .

٢٣ - وأما البقية الباقية من قريش الكفر فكانت قد تجمعت جنوبى مكة تريد أن تقاوم الفتح وأمر الله ، وكانوا على أى حال قلة تستوقف النظر بِقِلَّتها . مدينة كبيرة لم يكن أهلها ليقلون عن خمسين أو ستين ألفاً تدخل فى الإسلام أو تستظل بأمان الإسلام وتظل ثابتة مكانها حتى يأذن الله بإسلامها ، فلا يشذ عن إجماع ملئها إلا نحو عشرين إنساناً يذكرهم المؤرخون بالاسم ويتتبعون مصائرهم حتى أسلموا إلا اثنين أو ثلاثة اختفوا أو ماتوا على الشرك وتواروا فى ظلام التاريخ . مدينة كاملة كانت بالأمس معقل العداء للإسلام تقف ساكنة هادئة وجيوش الإسلام - عدوها بالأمس فيما كان أهلها يتصورون - تدخل البلد

وتسير فيه آمنة كأنه بلد إسلامى منذ الأمد الطويل ، فى جنوبى المدينة فقط وفى ركن صغير منها وقف نفر من أهل العداوة والإسلام هم مَنْ ذكرنا من بنى عامر بن لؤى ، وواحد فقط من غالب بن لؤى هو عكرمة بن أبى جهل ومعهم أحابيشهم أى أنصارهم ، تترسوا هناك يقولون لخالد بن الوليد وهو كان المكلف بالدخول من الجنوب ، لا تدخلها علينا أبداً !

ويشاء حظهم أن يكون الداخل عليهم من هذه الناحية هو خالد بن الوليد وهو قائد موهوب لا يتردد فى إبادة العدو إبادة إذا اقتضى نظره العسكرى ، لأنه كان يرى دائماً أنه قائد عسكرى ، ورسالة القائد العسكرى عنده هى النصر وتحطيم العدو ، فما قالوها حتى ذهبوا بدداً ، وفى برهة من الزمان يهلك منهم ٢٤ رجلاً من قريش وأربعة من هذيل « وانهزموا أقبح الانهزام حتى قُتِلوا بالحزورة وهى كانت سوق مكة إلى جوار الحرم ، وقد دخلت فيه من زمن بعيد - وهم مولون فى كل وجه وانطلقت منهم جماعة فوق رؤوس الجبال واتبعهم المسلمون ، فجعل أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام يصيحان : يا معشر قريش ، علام تقتلون أنفسكم ؟ من دخل داره فهو آمن ومن وضع السلاح فهو آمن ، فجعل الناس يقتحمون الدُّور ويغلقونها عليهم ويطرحون السلاح فى الطرق حتى يأخذها المسلمون » ومن أذاخر يرى رسول الله ﷺ لمعان السيوف فيقول « ما هذه البارقة ؟ ألم أَنْهَ عن القتال ؟ قيل : يا رسول الله خالد بن الوليد قُوتِل . ولو لم يُقاتَل ما قاتل ، فقال رسول الله ﷺ : قضاء الله خير »[1].

ويمر رسول الله - وهو داخل - ببنات سعيد بن العاص وهو أبو أحيحة بن أمية ابن عبد شمس رأس الكفر والعداوة لرسول الله ، وقد مات كافراً ، وقد نشرن رؤوسهن يضربن بخمرهن رؤوس الخيل ، كأنهن يندبن حظهن ويحسبن أن هذه نهاية الدنيا فيأسى رسول الله لحالهن وتأخذه بهن رقة ، وبعد قليل يسلمون ويصلح إسلامهن ويجدن فى ظل الإسلام من الكرامة ما لم يكن يخطر لهن على بال .

وينتهى رسول الله ﷺ إلى الكعبة ويراها ومعه المسلمون ، ولقد كان قد رآها بعد

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٢٦ .

هجرته فى عمرة القضية ، ولكنها اليوم تحت راية الإسلام ويستلم الركن بِمِحْجنه ويكبِّر فيكبِّر المسلمون وراءه تكبيراً ترتج له أركان مكة ، حتى يشير إليهم الرسول بيده أن اسكتوا فيسكتون « والمشركون فوق الجبال ينظرون » ثم يطوف بالبيت على راحلته وقد أخذ بزمامها محمد بن مسلمة ويأمر بالأصنام حول مكة فتُهدم ويكمل الرسول طوافه ، ثم يُؤتى له بماء من زمزم فيشرب ، ثم ينظر إلى هُبل يهدم ، ثم يطلب مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة فيأتيه به فيأمره أن يدخل ويزيل كل ما بداخلها من تصاوير ، وفيها صورة لعيسى بن مريم وأمه السيدة مريم ، وصورة لإبراهيم يستقسم بالأزلام فتُزال هذه الصور ثم يدخل الرسول فيصلى ركعتين ثم يخرج وقد تطهرت الكعبة وأصبحت كعبة الإسلام حقاً ، ثم يخرج فيقف على باب الكعبة ويقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ! ماذا تظنون ؟ وماذا تقولون ؟ قالوا : نظن خيراً ونقول خيراً أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرتَ ! فيقول رسول الله ﷺ : أقول كما قال أخى يوسف ﴿ **لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾[1] ألا إن كل رِبا فى الجاهلية أو دم أو مال أو مأثُرة، فهو تحت قدمىّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وفى قتيل العصا والسوط الخطأ شبه العمد ، الدِّية مُغَلَّظة مائة ناقة ، منها أربعون فى بطونها أولادها .

إن الله قد أذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها ، كلكم من آدم وآدم من تراب ، وأكرمكم عند الله أتقاكم . ألا إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام بحرمة الله لم تحل لأحد قبلى ولا تحل لأحد كائن بعدى ، ولم تحل لى إلا ساعة من النهار يقصرها رسول الله ﷺ بيده هكذا[2] ، ولا يُنفَّر صيدها ولا يُعضد عضاها[3] ولا تحل لقطتها إلا لمنشد ولا يختلى خلاها ... إلا الأذخِر فإنه حلال ، ولا وصية لوارث ، وأن الولد للفراش وللعاهر الحجر ، ولا يحل لامرأة تعطى من مالها إلا بإذن زوجها ، والمسلم أخو المسلم والمسلمون إخوة ، والمسلمون يد واحدة على من سواهم ، تتكافأ دماؤهم ، يرد عليهم أقصاهم ويعقد عليهم أدناهم ومُشِدُّهم على مضعفهم [4] ، وميسرتهم على قاعدهم ، ولا يُقتل مسلمٌ بكافر ، ولا ذو عهد فى

(١) سورة يوسف :٩٢ .
(٢) أى : يشير بأصبعه أنها ساعة قصيرة .
(٣) أى : لا يقطع نباتها الصغير .
(٤) شدّ على العدو : هجم عليه ، وضعف أى صار ضعيف .

عهده ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ، ولا جلب ولا جنب [1] ولا تؤخذ من صدقات المسلمين إلا فى بيوتهم وبأفنيتهم ، ولا تُنكح المرأة على عمتها وخالتها[2]...» إلى آخر هذا الخطاب القصير الذى يبين بعض حدود الإسلام ويضع حداً لبعض ممارسات الجاهلية التى تخالف الإسلام .

وهكذا تطهرت الكعبة وعادت إلى الإسلام ملة إبراهيم وأذَّن من فوقها بلال وآمن الناس وسعدوا بأن مدينتهم دخلت عالم الإسلام هذا الدخول السلمى الآمن ، ولا شك أن ألوفاً بعد ألوف أسلمت فى هذه المناسبة لأن الذين ظاهروا الإسلام بالعداء ورفضوا الدخول فى أمته ، كانوا نفراً يُعَدُّون على أصابع اليدين ، وهم معروفون لنا بأعيانهم ، وقد قصَّ علينا المؤرخون قصة كل منهم وما جرى له ومعظمهم لم يلبث أن أسلم أو استأمن وأسلم وحَسُنَ إسلامهم ، ورجال مثل : عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية بن خلف ، وسهيل بن عمرو أصبحوا من خيرة المسلمين ، وسنلم بذكرهم فى الفصل التالى .

لقد أبى رسول الله ﷺ إلا أن يرد مفتاح الكعبة لبنى عبد الدار أصحاب ذلك المفتاح من قديم ، وقد مثَّلهم هنا عثمان بن طلحة بن أبى طلحة وهو مسلم قديم ، كان قد هاجر إلى المدينة مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وظل المفتاح فى يدهم بعد ذلك قروناً متطاولة ، وأقر الرسول العباس بن عبد المطلب على السقاية كما كانت قبل الفتح .

وقد جعل رسول الله مكة حراماً لا يحل فيها القتل أو العدوان لأحد ، وكان ذلك فى يوم الفتح وبعد خطاب رسول الله الأول ، وقد ذكرنا معظمه ، ثم اعتدى الخزاعيون على رجل كان لهم عنده ثأر ثانى يوم من أيام الفتح فأعاد رسول الله توكيد حرمة مكة إلى يوم القيامة والمدينة أيضاً كان جوفها حراماً منذ العام الثانى للهجرة ، الذى كُتِب فيه جزء من الصحيفة ، وبذلك أصبح للأمة الإسلامية مدينتان محرمتان ، هما مكة والمدينة ، ولم يغير رسول الله ﷺ مقامه من المدينة إلى مكة وفاء منه لأهلها ،

(١) أى : أن المصدق وهو الذى يراقب إخراج الصدقات ويأخذ نصيب الله ورسوله منها ، لا يبقى مكانه ويطلب إلى الناس أن يأتوه بالصدقة كأنه جامع ضرائب ، بل يذهب إليهم بنفسه .

(٢) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٨٣٥ - ٨٣٧ .

ولكن مكة كانت أحب بلاد الله إليه فهى مهده وفيها الكعبة والحرم وهى مقصد الحجاج .

وقد جدد رسول الله أنصاب الحرم يوم الفتح على يد رجل من العارفين بمواضع مكة هو تميم بن أسد الخزاعى . وقد جدد هذه الأنصاب عمر بن الخطاب ، ثم عثمان، ثم معاوية عندما حج . ونص الخطبة التى ألقاها رسول الله ﷺ يوم دخوله مكة وتطهيره الحرم لا يتضمن عبارة « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، فإن الذى قاله بحسب رواية الواقدى ، « ماذا تقولون وماذا تظنون ؟ قالوا : نظن خيراً ونقول خيراً : أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرتَ ! فقال رسول الله ﷺ : فإنى أقول كما قال أخى يوسف ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[1] ألا إن كل ربا فى الجاهلية وكل دم أو مال أو مأثرة فهو تحت قدمى إلا سدانة الكعبة الخ »[2] .

فمتى قال رسول الله عبارة اذهبوا فأنتم الطلقاء قالها بعد ذلك لأنه كان يريد - وقد دخل - مكة أن ينتصف بنو كعب الخزاعيون من بنى بكر بن عبد مناة للذى فعلوه بهم[3] . وقد نص الواقدى على ذلك صراحة فقال « يا معشر المسلمين ، كفوا السلاح إلا خزاعة عن بنى بكر إلى صلاة العصر فخبطوهم ساعة وهى الساعة التى أُحِلَّت لرسول الله ﷺ لم تحل لأحد قبله ، وكان رسول الله ﷺ نهى أن يُقتل من خزاعة أحد [4] ويضيف ابن سيد الناس عن ابن إسحاق ، أن نفراً من أوباش قريش حاولوا التصدى للمسلمين فسلط الرسول عليهم الأنصار ، فعصفوا بهم ، فقال أبو سفيان لرسول الله : أبيحت خضراء قريش لا قريش بعد اليوم فكرر رسول الله عليه مقالته وهو داخل مكة : من دخل داره فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، قال: فغلَّق الناس أبوابهم »[5] .

وتؤكد رواية الواقدى هذا المعنى فتقول : إن هذا القتال هو الذى كان من ناحية

---

(١) سورة يوسف - آية ٩٢ .
(٢) الواقدى ٢/ ٨٣٥ - ٨٣٦ .
(٣) الواقدى ٢/ ٨٣٥ - ٨٣٦ .
(٤) الواقدى ٢/ ٨٣٦ .
(٥) ابن سيد الناس ، عيون الأثر ٢/ ١٧٤ .

الليط حيث دخل خالد ، وقد ذكر الواقدى أن الذين تجمعوا هناك كانوا نفراً من الحاقدين الخائفين من أمثال سهيل بن عمرو ، فبدرهم خالد وتبعهم حتى الحزورة وهو سوق مكة « وانطلقت طائفة منهم فوق رؤوس الجبال واتبعهم المسلمون ، فجعل أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام يصيحان : يا معشر قريش : علام تقتلون أنفسكم ، من دخل داره فهو آمن ، ومن وضع السلاح فهو آمن ، فجعل الناس يقتحمون الدُّور ويلقون السلاح حتى يأخذها المسلمون »[1]. وهنا وبعد أن يهدأ الحال ويطمئن الخائفون ويقتنع أهل مكة بأن ما أتاهم به أبو سفيان يكون الأمان هو أوان إعلان الرسول لأهل مكة أنهم طلقاء .

قال ابن سيد الناس راوياً عن ابن إسحاق : « ولما نزل رسول الله مكة واطمأن الناس ، خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده ، فلما خف طوافه دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففُتحت له فدخلها ، فوجد بها حمامة من عيدان « من خشب » فكسرها بيده ثم طرحها ، ووقف على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدَّعى فهو تحت قدميَّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج . ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ، ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل ، أربعون منها فى بطونها أولادها ، ألا يا معشر قريش إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم وآدم من تراب ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات] الآية ثم قال : يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل فيكم ، قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، ثم قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء »[2] .

وهذه كلمة تَرُوعُ النفس حقاً ، وهى دليل على ما وهب الله رسوله من سمو النفس وسماحة الخلق ، ولكن لها فى هذا الظرف بالذات معنى آخر لو تفطن إليه الناس لزاد إعجابهم بمحمد صلوات الله عليه . ذلك أن قواعد الحرب فى الجاهلية ،

---

(١) الواقدى ٢/ ٨٢٦ .

(٢) ابن سيد الناس ، عيون الأثر : ٢/ ١٧٨ .

أى قبل الإسلام فى جزيرة العرب وخارجها كانت تجعل أهل أى بلد يُفتح فى موضع الأسرى بيد القائد الفاتح ورجاله ، فالقائد الرومانى مثلاً كان إذا فتح بلداً أصبح البلد ملكه أو مِلْك أمة الرومان وكل من فيها أسرى ، وعندما غزا الرومان مصر أو الشام أو آسية الصغرى أو بلاد اليونان أصبحت هذه البلاد كلها بما فيها ومن فيها مِلْكاً لدولة الرومان ، وفرضوا عليها إتاوة ، وسخروا أهلها لخدمة الرومان وأصبح الجندى الرومانى سيداً وأصبح للحاكم الرومانى حق السلب والنهب والقتل حتى يصدر القائد الأمر للجنود بالتوقف عن النهب ، والرومان هنا أفضل من غيرهم لأنه كان لهم قانون ، وأما الفرس والأشوريون والبابليون فكانوا ينهبون ويقتلون قدر ما استطاعوا ، وحتى القبائل العربية كانت إذا أغارت إحداها على الأخرى أسرت من وقع فى أيديها من خصومها ، ويمسكون البلد رهينة بين أيديهم وأهلها أسرى .

فلما فتح رسول الله مكة أراد تطبيقاً لشرع الإسلام وإنسانيته أن يقول لأهل مكة : إنكم لستم أسرى ولا عبيد غالب ، وبلدكم ليس ملكاً لى أو لأى واحد من قوادى ورجالى. وهذا هو الذى أراد رسول الله أن يتفاداه عندما عزل سعد بن عبادة عن حمل راية واحد من جيوش الفتح ، عندما بلغه أنه قال : اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة ، فقد حسب هذا الرجل رغم إسلامه أن الأمر هنا أمر فتح وغلب واستحلال حرمات ، وهذا هو المعنى التاريخى لقول محمد - عليه ألف صلاة وسلام - لأهل مكة : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، أى : أنه ليس غزواً ولا ملكاً ولا غلباً ولا سيادة غالب على مغلوب ، إنما هو فتح أى فتح القلوب للإسلام .

والآية القرآنية تقول ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾ [النصر] أى : أن الإسلام ينتصر أولاً ثم لا تكون غلبة أو سيادة وإنما فتح للقلوب لينفذ إليها الإسلام ، وهذا الفتح الإلهى لا يكون بين يوم وليلة ، فمن الناس من يفتح الله عليه ويهديه ساعة الفتح ، ومن الناس من يحتاج إلى وقت حتى يناله الهدى ، ومنهم من لا يهتدى أبداً ، فكُلّ وما قُدر له وما كتب له عليه ، ولكل إنسان وضع وتقنين فى شرع الله ، فأما من اهتدى وأسلم راضياً مختاراً فهو أخ مسلم ومواطن فى الأمة ، وأما من أراد مهلة فيمهله الرسول ، ثم تجىء صورة براءة فيجعل المهلة للكافر الوثنى أربعة أشهر ،

وبعدها يجوز عليه القتل ، أما الرجل من أهل الكتاب فعليه الجزية والطاعة حتى يهتدى إن أراد الله به الخير .

وقد طبق الرسول هذا المعنى الذى ذكرناه فى الطليق والطلقاء مع أكثر من واحد ممن لم يشأ أن يسلم عند الفتح ، منهم سهيل بن عمرو بن عبد ود شيخ بنى عامر بن لؤى الذى حاول أن يقود قريشاً فى آخر محاولاتها للوقوف فى وجه الإسلام ، وتصرف على النحو الجافى مع رسول الله ﷺ فى محادثات الحديبية ، وكان من الطبيعى أن يخاف هذا الرجل على نفسه خوفاً شديداً بعد الفتح وتوقع أن يعاقبه الرسول على ما بدا منه ، خاصة وأنه لم يسلم ، ولم يكن الرجل بالضعيف أو المنافق ليعلن إسلاماً كاذباً فاختفى .

قال الواقدى على لسان سهيل : « وأرسلت إلى ابنى عبد الله بن سهيل أن اطلب لى جواراً من محمد ، وأنى لا آمن أن أُقتل ، وجعلت أتذكر أثرى عند محمد وأصحابه ، فليس أحد أسوأ أثراً منى ، وإنى لقيت رسول الله ﷺ يوم الحديبية بما لم يلقه أحد ، وكنت الذى كاتبته ، مع حضورى بدراً واحداً ، وكلما تحركت قريش كنت فيها ، فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله تؤمنه فقال : نعم، هو آمن بأمان الله ، فليظهر ! ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله : من لقى سُهَيل بن عمرو فلا يُشِد النظر إليه ، فليخرج ، فلعمرى إن سهيلاً له عقل وشرف ، وما مثل سُهَيلٍ جهل الإسلام ، ولقد رأى ما كان يوضع فيه أنه لم يكن بنافع ! فخرج عبد الله إلى أبيه فأخبره بمقالة رسول الله ﷺ فقال سهيل : كان والله براً صغيراً وكبيراً ؛ فكان سهيل يقبل ويدبر وخرج إلى حُنين مع رسول الله ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بالجِعرَّانة »[1] .

ولقد ترك رسول الله ﷺ سهيلاً لنفسه ، فإن شاء أسلم وإن لم يشأ فهَذا مصيره ، بل امتدحه وقال : إن سهيلاً له عقل وشرف وما مثل سهيل جهل الإسلام . وأثَّرت الكلمات فى نفس الرجل ، وأحس أن من يقول مثل هذا الكلام لابد أن يكون صادقاً وما دام صادقاً فهو نبى ، وما دام نبياً فلابد من الإيمان به ، ومن هنا فإن سهيلاً عندما

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٤٦ - ٨٤٧ .

أسلم كان من أحسن الناس إسلاماً ، وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وبدت على بعض القرشيين بوادر الشك والارتداد ، قام هذا الرجل فيهم خطيباً وقال: يا معشر قريش ، لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد ، والله إن هذا الدين ليمتد امتداد الشمس والقمر من طلوعهما إلى غروبهما .

وفى أيام عمر أقبل فوجد الناس ينتظرون أدوارهم ليدخلوا على عمر ، وعمر يبدأ بالمسلمين الأولين وأصحاب السابقة فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط ، إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يُلتفت إلينا ! فقال لهم سهيل بن عمرو : أيها القوم ، إنى والله قد أرى ما فى وجوهكم ، فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم ، دُعِى القوم ودُعِيتم ، فأسرعوا وأبطأتم ، أما والله لَمَا سبقوكم به من الفضل أشد عليكم فوتاً من بابكم هذا الذى تتنافسون عليه ! ثم قال : أيها الناس ، إن هؤلاء سبقوكم بما ترون ، فلا سبيل والله إلى ما سبقوكم إليه ، فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى الله أن يرزقكم الشهادة ، ثم نهض، فقام ، فلحق بالشام » .

وهذه هى الغاية التى رمى إليها رسول الله ﷺ بهدى من ربه عندما قال للقرشيين: اذهبوا فأنتم الطلقاء أى : اذهبوا فأنتم أحرار ولا إسار لى عليكم ولا بأس عليكم فى أنفسكم وفى أموالكم ، فلينظر كل منكم ما هو فاعل ، أى : أنه رد الناس إلى أنفسهم فالذين اهتدوا منهم مثل : سهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل ، فقد كانوا من أعاظم الناس إسلاماً ، أما من أسلم على حرف وبقيت فى قلبه غلواء الجاهلية كما رأينا من كلام أبى سفيان ، فلم يسعدوا بقلوبهم هذه الجافية قط ، ومن هؤلاء القرشيين الذين أسلموا عند الفتح ، من ظل جاهلياً فى تصرفه وطريقته فى الكلام والعمل وإن أسلم وآمن فعلاً ، ومثال هؤلاء حويطب بن عبد العزى ، وكان إلى حين الفتح من ألد أعداء الإسلام ، ولكنه أسلم وآمن .

قال المصعب الزبيرى « وكان أحد من دفن عثمان بن عفان رحمة الله عليه ، وباع من معاوية داراً بالمدينة بأربعين ألف دينار فاستشرف الناس لذلك (أى : تعجبوا منه) فقال : وما أربعون ألف دينار لرجل له أربعة عيال ! »[1] ومثاله أو قريب منه عبد الله

(١) المصعب الزبيرى ، نسب قريش ، ص٤٢٧ .

ابن مخرمة فقد ظل على جلافته ، وكان له ابن يسمى نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة ، قال المصعب الزبيرى « وكان من أشراف قريش ، وكانت له ناحية من الوليد ابن عبد الملك وكان الوليد يعجبه الحمام ويتخذ له ويطيره ، فأدخل نوفل بن مساحق عليه وهو عند الحمام فقال له الوليد : إنى خصصتك بهذا المدخل لأُنْسِى بك». فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنك والله ما خصصتنى ولكن خسستنى إنما هذه عورة ، وليس مثلى يدخل على مثل هذا » ، فسيَّره إلى المدينة وغضب عليه وكان يلى المساعى « أى الصدقات » فأخذه بعض الأمراء بالحساب ، فقال له : أين الغنم ؟ قال : أكلناها بالخبز . وقال : فأين الإبل ؟ قال : حملنا عليها الرجال ، قال : وكان لا يعرف إلى الأمراء من المساعى شيئاً : يقسمها ويطعمها[1] ، فهذا رجل أسلم وظل جاهلياً وحُرِم بشاشة الإيمان فلم تمس قلبه قط .

ومن القرشيين من خاف على نفسه فهرب وأبعد فى الهرب ، ومن هؤلاء هبيرة بن أبى وهب وهو يومئذ زوج أم هانى بنت أبى طالب (أخت على كرم الله وجهه) ، فقد هرب مع عبد الله بن الزبعرى حتى أتيا نجران ، ودخلا فيها حصناً من شدة الخوف وجعلا يقولان : إن قريشاً قد قُتِلت وإن محمداً سائر بجيوشه إلى نجران ، وبعث حسان بن ثابت إلى ابن الزبعرى بِشِعْرٍ يخوِّفه به ، ورأى ابن الزبعرى الذى طالما هجا الإسلام ورسوله ألا مهرب له من أمر الله فأزمع العودة ، وعجب من أمره هبيرة ابن أبى وهب ، فما كان يحسبه يدخل الإسلام قط بعد الذى فعل وقال له : يا ليت أنى رافقت غيرك . والله ما ظننت أنك تتبع محمداً ، وعاد ابن الزبعرى وأسلم وأكرم الرسول مثواه ، أما هبيرة فقد ظل على كفره حتى مات بنجران ، وأما أم هانى امرأته فأسلمت عند الفتح وغريب من الأمر أن هذه السيدة الكريمة التى طالما أمن الرسول إليها واطمأن فى بيتها بعد موت السيدة خديجة رضى الله عنها ، وفى بيتها كان رسول الله ليلة أُسْرِى به ، ومع هذا فهى لم تسلم إلا عند الفتح ، والله سبحانه يهدى من يشاء متى يشاء .

بل أسلمت هند بنت عتبة ، أليست هند هذه صاحبة الأفاعيل بجثمان حمزة، وهى زوج أبى سفيان ؟ فأكرمها الرسول وقَبِل إسلامها .

---

(١) نفس المصدر ص٤٢٧ .

أما عكرمة بن أبى جهل فقد هرب إلى البحر يريد أن يركب سفينة ليهرب من رسول الله ، وكانت امرأته أم حكيم قد أسلمت فطلبت الأمان لزوجها من رسول الله ﷺ فأمَّنها فخرجت فى طلب زوجها وعادت به فأسلم ولقى من رسول الله كرامة عظيمةً ، وبلغ من إكرام الرسول إياه حين أهلَّ عليه ليسلم أن قام إليه واعتنقه وأمر أصحابه ألا ينادوه بعكرمة بن أبى جهل ، بل بعكرمة بن أبى الحكم وأمرهم ألا يسبوا أبا جهل ، وقال كلمة بليغة : فلا تسبوا أباه ، فإن سب الميت يؤذى الحى ، ولا يبلغ الميت !

فلا عجب إن كان إسلام عكرمة عميقاً خالصاً ، حتى قال : يا رسول الله ، لا أدع مالاً أنفقت عليك إلا أنفقت مثله فى سبيل الله ، وقد كان من أمراء جيوش أبى بكر فى حرب الردة ، وخرج فى بعض تلك الجيوش ومعه خباء عظيم وثمانية أفراس ورماح وعدة ظاهرة ، فانتهى إليه فإذا بخباء عكرمة ، فسلَّم عليه أبو بكر وجزاه خيراً وعرض عليه المعونة فقال : لا حاجة لى فيها ، معى ألفا دينار فدعا له بخير ، فسار إلى الشام ، واستشهد فى أجنادين وقيل : فى اليرموك أو فى يوم الصفر ، وحضر يوم فِحْل فكان من أعظم الناس بلاء ، وأنه كان يركب الأسنة حتى جرحت صدره ووجهه ، فقيل له : اتق الله وارفق بنفسك فقال : كنت أجاهد بنفسى عن اللات والعزى ، فأبذلها لها أفأستبقيها الآن عن الله ورسوله لا والله أبداً ، فلم يزود إلا إيماناً حتى قُتِل رحمه الله تعالى »[1] .

وكان رسول الله ﷺ بعد أن دخل مكة فاتحاً يعامل الناس وكأنه إلى جانب نبوته حكيم يداوى النفوس ، فهو يخاطب كل واحد على قدر عقله وبالطريقة التى يفهمها. ذكر الواقدى فى خبر إسلام صفوان بن أمية بن خلف بعد أن حكى قصة تأمين عمير ابن وهب إياه وعوده من الشعيبة إلى مكة فى أمانه قال : « يا محمد ، إن عمير بن وهب جاءنى ببُردك وزعم أنك دعوتنى إلى القدوم عليك فإن رضيت أمراً وإلا سيَّرتنى شهرين . قال : انزل أبا وهب ، قال : لا والله حتى تبين لى ، قال : بل تسير أربعة أشهر. فنزل صفوان ، وخرج رسول الله قِبل هوازن ، وخرج معه صفوان وهو كافر

(١) ابن الأثير : أسد الغابة : ٤/ ٧٠ - ٧٢ .

وأرسل إليه يستعيره سلاحه ، فأعاره سلاحه مائة درع بأداتها فقال : طوعاً أم كرهاً ؟ قال رسول الله ﷺ : عارية مُؤدَّاة ! فأعاره فأمره رسول الله فحملها إلى حنين ، فشهد حنيناً والطائف ، ثم رجع رسول الله إلى الجِعرانة ، فبينا رسول الله ﷺ يسير فى الغنائم ينظر إليها ومعه صفوان بن أمية ، جعل صفوان ينظر إلى شِعْب « مساحة مُسوَّرة بسياج » مُلِىء نَعَماً وشاء ورعاء ، فأدام إليه النظر ، ورسول الله ﷺ يرمقه فقال : أبا وهب ، يعجبك هذا الشِّعْب ؟ قال : نعم . قال : هو لك وما فيه ، فقال صفوان عند ذلك : ما طابت نفسُ أحدٍ بمثل هذا إلا نفس نبى : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأسلم مكانه »[1] .

وهكذا عرف الرسول كيف يقنع هذا القرشى الجافى بمنطقه ، فإن صفوان إلى ذلك الحين كان بعيداً عن أن يتأثر أو يقتنع بالقرآن وإلا فقد كان دخل فى الإسلام وإنما هو يقتنع بأن محمداً نبى لأنه يجود دون تردد بذود نَعَمٍ وشاءٍ . ولقد أعطاه الرسول من غنائم حنين حتى قال : أعطانى رسول الله يوم حنين ، فما زال يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلىَّ . وقد حسن إسلام صفوان بن أمية بعد ذلك وعندما سمع أن الهجرة إلى رسول الله واجبة ، تحمَّل على نفسه وهاجر إلى المدينة ، ووجد الرسول أن الهجرة تشق عليه ، فقال له : لا هجرة بعد الفتح ثم قال : ارجع أبا وهب إلى أباطح مكة فَقَروا على سكناكم « مواضعكم » ، فرجع إلى مكة وأقام بها حتى مات .

ومن صفوان هذا واثنين آخرين من مسلمى الفتح استقرض رسول الله مالاً بعد تمام الفتح ليعطى أهل الضعف والحاجة من المسلمين ، وقد رأينا أن الرسول استقرض سلاحاً من صفوان بن أمية عند الخروج إلى حنين ، وفى ذلك قال الواقدى ، بعد السنة استقرض رسول الله ﷺ من ثلاثة نفر من قريش : من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم ، فأقرضه ، واستقرض من عبد الله بن أبى ربيعة أربعين ألف درهم ، واستقرض من حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم فكانت ثلاثين ومائة ألف فقسمها رسول الله ﷺ بين أصحابه من أهل الضعف [2] قال « فأخبرنى رجل من بنى كنانة : كانوا مع رسول الله ﷺ فى الفتح إنه قسم فيهم دراهم ، فيصيب

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٥٤ - ٨٥٥ .
(٢) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٦٣ .

الرجل خمسين درهماً أو أقل أو أكثر ، ومن هذا المال بعث إلى بنى جذيمة » .

وهذه الأخبار تدل على أن سراة القرشيين المكيين كانوا لا يزالون إلى الفتح فى سعة من المال ، بل كانوا أغنى من أثرياء أهل المدينة ، فلم نعلم أن رسول الله ﷺ استقرض مالاً بهذا الحجم من سعد بن عبادة أو غيره ، وكان سعد بن عبادة من أكثر الناس بذلاً فى سبيل الله ، وقد روينا ، كثيراً من أمثلة عطائه فى سبيل الله ومن سماحة يده ما جعل رسول الله ﷺ يقول : خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام ، وسعد بن عبادة كان فيما نعلم أغنى الأنصار ومع ذلك فإنه لم يملك من المال السائل هذا المبلغ وهذا المال وما اتصف به القرشيون من الجود به ، كان من الوسائل التى استعادت به قريش مركزها فى الإسلام بعد أن كادت تفقده بعد فتح مكة . وقد رأينا مثلاً من ذلك فيما حكيناه عن عكرمة بن أبى جهل بعد إسلامه .

حتى هَبّار بن الأسود ووحشى قاتل حمزة عفا رسول الله عنهما بعد إسلامهما ، فأما هبار فهو الذى عَسَّ « تتبع » بابنة النبى ﷺ زينب وضرب ظهرها بالرمح وكانت حبلى فسقطت . فأهدر النبى ﷺ دمه ، ومثل هذه الجريمة لا تُنسى ولكن رسول الله غفرها لصاحبها بالإسلام عندما دخل عليه هبار وأسلم ، وكذلك كان الحال مع وحشى ، وقد كان غضب النبى عليه غضباً شديداً لما صنع بحمزة رضى الله عنه . ولكن رسول الله تناسى له جرمه وعافاه بالإسلام وعاش حتى يستشهد فى قتال مسيلمة فى اليمامة .

أما الذين قُتِلوا يوم الفتح بأمر الرسول ﷺ فكانوا الأراذل حقاً ممن عظمت جرائمهم دون أمل لهم فى صلاح حال ، من أمثال ابن خطل الذى ارتد وقتل مسلماً غدراً بعد إسلامه ، وجاريتيه فَرَتنا [1] وأرنب وكانتا فاسقتين وكانتا تنشدان الشعر وتغنياه فى ذم الإسلام ورسوله ، وسارة مولاة عمرو بن هاشم وكانت مغنية نوَّاحة فى مكة ووفدت على الرسول فى المدينة ، فلم يعنف معها وأعطاها وِقْر بعير طعاماً ، فعادت إلى مكة واستمرت على ما هى عليه فقُتِلَت عند الفتح ، ومقيس بن صُبَابة

(١) اسمها فى النصوص هكذا فرتنى وهى جارية رومية أو من بلاد الروم فى الغالب ، والراجح أن أصل اسمها Fortuna أى حظ أو نصيب ، وهو اسم للنساء معروف عند الروم .

وكان امرءاً خليعاً سكيراً وقد غشته نفسه بعد الفتح ، فخرج سكران يهذى بشعر فيه عدوان على الإسلام ، فانقضَّ الناس عليه وهبروه بالسيوف وهذا الرجل كان قد اعتبط مسلماً غدراً بعد أن أخذ الدية عن أخ له قتله المسلم خطأ .

وعندما رأى الرسول إقبال القرشيين رجالاً ونساء على الإسلام عند الفتح ، طابت نفسه عن قومه ونسى لهم ما كانوا فعلوه به وبالمسلمين بل استمر فى إعزازهم ، وذلك دليل أصالته وكرم نفسه . روى الواقدى بسنده أن رسول الله لما فتح مكة جلس عبد الرحمن بن عوف فى مجلس فيه جماعة منهم سعد بن عبادة ، فمر نسوة من قريش على هذا المجلس ، فقال سعد بن عبادة : قد كان يُذكر لنا عن نساء قريش حسن وجمال ، ما رأيناهن كذلك . فغضب عبد الرحمن حتى كاد أن يقع بسعد وأغلظ عليه ، ففر منه سعد حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ماذا لقيت من عبد الرحمن فقال رسول الله ﷺ : وما له ؟ فأخبره بما كان قال ، فغضب النبى ﷺ حتى كأن وجهه ليتوقد ، ثم قال : رأيتهن وقد أُصِبْنَ بآبائهن وأبنائهن وإخوانهن وأزواجهن . خير نساء ركبن الإبل نساء قريش : أحناهن على ولد ، وأبذلهن لزوج بما ملكت يد .

وبهذه المناسبة نذكر أشياء مما وقع لنا فى الكتب من أوصاف رسول الله ﷺ فى هذا المعنى ، وهو يعيننا على تصور هيئته ﷺ عند هذا الفتح العظيم المبارك . قال الواقدى: « وكان أبو الطفيل عامر بن وائلة يقول : رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة ، فما أنسى شدة بياضه وسواد شعره ، وإن من الرجال لمن هو أطول منه ، ومنهم من هو أقصر منه ، يمشى ويمشون حوله قال : فقلت لأمى : من هذا ؟ فقالت : رسول الله . قيل له: ما ثيابه ؟ قال : لا أدرى » .

قال : « وحدثنى عبد الله بن يزيد عن ربيعة بن عباد قال : دخلنا بعد فتحها بأيام ننظر ونرتاد وأنا مع أبى ، فنظرت إلى رسول الله ﷺ ، فساعة رأيته عرفته وذكرت رؤيتى إياه بذى المجاز ، وأبو لهب يتبع أثره يومئذ ، ورسول الله ﷺ يقول : لا حلف فى الإسلام ولن يزيد حلف الجاهلية الإسلام إلا شدة . وكانت أم هانىء تحدث

تقول : ما رأيت أحداً كان أحسن ثغراً من رسول الله ﷺ ، وما رأيت بطن رسول الله ﷺ إلا ذكرت القراطيس المثنية بعضها على بعض تعنى عكنه [1] وقد رأيته قد دخل يوم الفتح ، قد ضفر رأسه بضفائر أربع[2] . ثم أضاف عن أم سلمة بعد السند : «ضفرت رأس النبى ﷺ بذى الحليفة أربع ضفائر ، فلم يحله حتى فتح مكة ومقامه بمكة ، حتى حين أراد أن يخرج إلى حنين حله وغسلتُ رأسه بسدر »[3] .

وبهدى الله وحكمة نبيه وبُعْد نظره كان فتح مكة خيراً على الإسلام وعلى أهل مكة ممن عادوه وأبغضوه ، وقد كانوا يحسبون أن ذلك الفتح هو نهاية عزهم ومجدهم، فأراد الله سبحانه أن يكون ذلك بداية عز لهم جديد ، ويتجلى لنا ذلك من خبر جليل المعنى يرويه الواقدى بمناسبة إعطاء رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة بن أبى طلحة من بنى عبد الدار ، قال : وكان رسول الله ﷺ قال لعثمان يوماً ، وهو يدعوه إلى الإسلام (أيام كان بمكة قبل الهجرة) ومع عثمان المفتاح : لعلك سترى هذا المفتاح بيدى أضعه حيث شئت ! فقال عثمان : لقد هلكت إذاً قريش وذلَّت ؟ فقال رسول الله ﷺ : بل عمرت وَعَزَّت يومئذٍ »[4] .

وهذا الخبر الذى أختم به هذا الفصل هو بداية الفصل التالى من هذه الدراسة عن قريش والإسلام .

مَوقف كبَار القرشيّين مِن الإسلام بعد الفَتح :

دخلت مكة نطاق أمة الإسلام ، ولكن معظم أئمة الكفر فيها ظلوا على موقفهم من الإسلام زماناً ، وبعضهم ظل على مكانه من الكفر إلى أن مات لأن الأمر عندهم كان معقداً ، فهم نفروا من الإسلام لأنه هدد مكانتهم فى مجتمعهم الجاهلى وأنذرهم بالحرمان مما كانوا يتمتعون به من سيادة وسلطان وصدارة فى المجتمع ورياسة بين الناس ، وكانوا يرون فى جاهليتهم رخصة فى العدوان على الضعفاء وتعدِّى الحدود ، ونفروا من محمد لأنه كان إلى ما قبل النبوة واحداً من أترابهم وأندادهم ، بل كان

---

(١) العكن : هو ما انطوى وتثنى من لحم البطن . القاموس المحيط ١/ ٣٢٥ .
(٢) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٦٧ - ٨٦٨ .
(٣) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٦٨ .
(٤) نفس المصدر ، ٢/ ٨٣٧ - ٨٣٨ .

بعضهم ممن أُوتِى مالاً ، يرى أنه أعز منه مكاناً ، وقد وقع فى خاطرهم أن النبوة التى ينادى بها محمد ، إنما هى حيلة منه لكى يعلو عليهم ويجعلهم من أتباعه .

ومن هذا الطراز كان سهيل بن عمرو الذى أبى أن يكتب فى وثيقة الحديبية أن محمداً رسول الله ، وتمسك بأن يكون محمد بن عبد الله فحسب ، وفى إحساسه أنه عندما يتمسك بذلك يتمسك بعلو كعبه على محمد ، وأن عبد الله بن عبد المطلب فى زعمه وتصوره أقل من عمرو بن عبد شمس بن عبد وَد وصفوان بن أمية لم ينس قط أنه ابن أمية بن خلف بن وهب سيد جمح ، وكان محمد يعرف ذلك ولكنه كان يملى لهم ويعرف أن فى نفوس بعضهم جوانب من الخير سيزكيها الإسلام عندما يدخلون فيه ويتعرفون على فضائله ومزاياه وشمائل رسول الله الكريم ، ومعظمهم هداه الله وأسلم وصلح إسلامه ، وبعضهم أسلم بشفتيه ولم يتعد الإسلام شفتيه ، وسنرى نماذج من هؤلاء جميعاً فيما يلى من الكلام .

وحجة أخرى ظل نفر من القرشيين متشبثين بها لأن عقولهم لم تستطع أن تتجاوزها ، وهى القول بأن محمداً ساحر ، وكل ما يأتى به فهو من عمل السحر ، وما دام أولئك النفر قد تحصنوا فى ذلك الكهف الأسود فلم يعد هناك شىء يستطيع إقناعهم بالخروج منه : فالقرآن سحر وحديث الرسول سحر وما يصل إليه الإسلام من توفيق ، إنما هو من عمل السحر وقد ضاعت هذه الجماعة بلا أمل وإن نطقت بكلمة الإيمان ، بالضبط كما ظل نفر من أهل المدينة متشبثين بعداواتهم للإسلام وإن تعوَّذوا بالنفاق ، وحديث عبد الله بن أُبىّ وعناده للإسلام وموته كافر القلب معروف ، والجد بن قيس بن صخر بن خنساء بن سنان من بنى عدى من بنى سلمة كان أوغل من ابن أُبىٍّ فى الإنكار والعداوة وإن تعوذ بالإسلام ، وقد أوجز ابن حزم كل الإيجاز فى الكلام عنه ولم يزد على أن قال « تُكُلِّمَ فيه » . وقد روى الواقدى فى المغازى من دلائل دَغَلِه وسوء نيته الكثير .

وقد أطال رسول الله المكث بمكة عند الفتح ، فقد قضى فيها خمس عشرة ليلة على قول ، وعشرين على قول آخر . وقد استخدم هذه المدة خير استخدام ، فأمر بتكسير كل الأصنام التى كانت فى البيوت ، وبعد تحطيم أصنام الكعبة أرسل سرايا لهدم

أصنام الآلهة خارج مكة مثل العزى وسواع ومناة . وأتم القضاء على معارضة بنى جذيمة من كنانة ، وكانوا ينزلون قريباً من معدن بنى سليم بن منصور ومنازلهم إلى الجنوب الشرقى من المدينة ، وفى أثناء مقامه بمكة كان نصر حنين وهزيمة هوازن ثم حصار الطائف فلم يخرج إلى الجِعِرَّانة ويريح بها ليقسم الفىء إلا بعد أن استقبل وفد هوازن ودخلوا الإسلام على يديه ، فردَّ عليهم سبيهم ، وفى مسيره إلى الجعرانة تهافت عليه الأعراب يطلبون عطاءه لما رأوا من كرمه وسخاء يده ، يقول الواقدى : «وجعلت الأعراب فى طريقه يسألونه وكَثَّروا عليه حتى اضطروه إلى سَمُرَة فخطفت رداءه فنزعته عن مثل شِقة القمر (يريد جسده الكريم) فوقف رسول الله ﷺ يقول : أعطونى ردائى ، أعطونى ردائى ! لو كان عدد هذه العضاة نَعَماً لقسمته بينكم ، ثم لا تجدونى بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً » . فردوا عليه رداءه .

وكانت معركة حنين أول اختبار لقريش بعد الإسلام ، وعندنا أخبار عن بعض من أسلم من زعماء قريش ولكننا لا نعلم موقف البقية من الإسلام وكانت أمامهم على أى حال مهلة أربعة أشهر منحهم إياها الله سبحانه وتعالى (فى أول سورة براءة) ليهديهم ، وتوكيداً لخلق الرسول الكريم معهم وأملاً فى أن يدخلوا الإسلام أذِنَ لبعض من بقى على الكفر منهم أن يخرجوا مع المسلمين .

وقد أضفى رسول الله ﷺ فضله على زعماء كفار قريش وتغاضى لهم عن الكثير ، ولم يكن يضير أمة الإسلام فى شىء أن يتأخر بعض كبار القرشيين فى دخول الإسلام ما داموا قد أصبحوا داخل نطاق الأمة ، ولا يستطيعون أن يضروها دون أن يتعرضوا للعقاب ، ثم إن خروجهم على الأمة كان محدوداً بالمهلة التى أعطاهم إياها رسول الله ﷺ خاصة ، وأن غالبية أهل مكة من قريش وغيرها قد دخلوا الإسلام وصدقوا فى إسلامهم .

وليس لدينا إلا النزر اليسير من المعلومات عن أولئك النفر من أهل العناد من القرشيين وما كان يجرى بينهم من كلام يكشف عن حقيقة دخائلهم ، والأغلب أنه كانت هناك أخبار كافية ، ولكنها اندرست وأهملها أصحاب التاريخ إكراماً لأبناء

أولئك المعاندين وأحفادهم ، ومعظمهم كان قد حسن إسلامه وأصبح ذا مكانة فى الجماعة الإسلامية فى العصر الراشدى وما تلاه من عصرى بنى أمية وبنى العباس .

فلم يعد من المستحسن جرح إحساس الأولاد والأحفاد بترديد ما يسىء إلى إحساسهم ، وقد رأينا أن ابن حزم مثلاً عندما جاء ذكر الجد بن قيس بن خنساء بن سنان ، وكان من كبار المنافقين من بنى عدى بن غنم بن كعب بن سلمة من الخزرج اكتفى بأن قال « تكلم فيه » وذلك مراعاة لذكرى ابنه محمد بن الجد بن قيس وابن أخيه الطفيل بن مالك بن خنساء وهو بدرى عَقَبىٌّ ومن شهداء الخندق ونفر آخر كثير من بنى سلمة ، كانوا بدريين وأولادهم وأحفادهم كانوا من كبار أهل التقوى والإيمان والعلم ، ولرسول الله ﷺ فى ذلك مذهب جميل ، فقد رأى أن الكثيرين من المسلمين يسبُّون أبا جهل بعد أن أسلم ابنه عكرمة وحسن إسلامه ، فقال لهم ﷺ كلمة هى من جماع كلمه وحِكَمه وآدابه ﷺ « لا تسبوا الميت ، فإن سَبَّ الميت يؤذى الحى ولا يصل إلى الميت » .

ومن مذاهبه الجميلة فى ذلك ما يرويه الواقدى من أن المسلمين اشتد حنقهم على الهوازنيين والثقفيين الذين كادوا أن يلحقوا بالمسلمين أشد الضرر فى أول يوم من حنين ، فلما تغير الحال وصارت الكَرَّة للمسلمين حنقوا عليهم ، فانقضوا عليهم «فقتلوهم حتى أسرع المسلمون فى قتل الذرية فبلغ ذلك رسول الله ﷺ (وهو فى المعركة بعد)، فقال : ما بال أقوام بلغ بهم القتل حتى بلغ الذرية ! ألا لا تُقتل الذرية ! ثلاثاً ، قال أسيد بن حضير : يا رسول الله ، أليس إنما هم أولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ : أو ليس خياركم أولاد المشركين كل نسمة تُولد على الفطرة حتى يُعرِب عنها لسانها ، فأبواها يُهوِّدَانها أو يُنصِّرانها »[1] .

ولكن تفاصيل أخبار كبار القرشيين هؤلاء إذا كانت قد أخفت عنا حقيقة ما كان يجرى داخل نفوسهم ، فإن لدينا من أخبار غيرهم ما يغنى فى هذا الموطن من رؤساء غطفان وبنى مرة وقشير من غير القرشيين . فقد روى هنا الواقدى ويا له من كنز حافل بالأخبار والحقائق خبراً يصور لنا السبب فى الموقف العجيب الذى وقفه عيينة

(١) الواقدى ، مغازى ٣/ ٩٠٥ .

ابن حصن وصاحبه الأقرع بن حابس التميمى من الإسلام ، فدخل فيه على حرف ، ثم حاربه دون أن يخرج عن الإسلام صراحة ، ولم يزل على خلقه هذا حتى كان فتح مكة فدخل فى جملة أصحاب محمد ﷺ ولكن قلبه ظل وثنياً حتى ضجر به أبو بكر .

فقد روى الواقدى فى أخبار سرية الجِنَاب التى قادها بشير بن سعد على أرض غطفان سنة سبع للهجرة ، والجِنَاب فى أرض غطفان من أدنى عوالى نجد ، فقد اشتدت وطأة بشير بن سعد وأصحابه على فزارة من غطفان ، (وعيينة فزارى) حتى أدركه الهلع فانكفأ هارباً ، فإذا هو فى ذلك إذ مر بمنازل بنى مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ، وكان شيخها الحارث بن عوف المرى - وكان له حليفاً - قد دخل الإسلام فمر به عيينة بن حصن يركض ، فقال له الحارث « أما لَكَ بَعْدُ أن تُبصر ما أنت عليه ، إن محمداً قد وطىء البلاد وأنت مُوضع فى غير شىء ، قال الحارث : فتنحيت عن سَنَن (طريق) خيل محمد حتى أراهم ولا يرونى ، فأقمت من حين زالت الشمس إلى الليل ما أرى أحداً ولا طلبوه إلا الرعب الذى دخله ، قال (الحارث) : فلقيته بعد ذلك فقال الحارث : فلقد أقمت فى موضع حتى الليل ما رأيت من طلب ، قال عيينة: هو ذاك أنى خفت الإسار ، وكان أثرى عند محمد ما تعلم فى غير موطن .

قال الحارث : أيها الرجل ، قد رأيت ورأينا معك أمراً بيناً فى بنى النضير ويوم الخندق وقريظة وقبل ذلك قينقاع وفى خيبر أنهم كانوا أعز يهود الحجاز كله ، يقرون لهم بالشجاعة والسخاء ... ثم قد رأيت حيث نزل بهم (محمد) كيف ذهبت تلك النجدة وكيف أديل عليهم ؟ فقال عيينة : هو والله ذاك ولكن نفسى لا تقرنى . فقال الحارث : فادخل مع محمد ! قال : أصير تابعاً ، قد سبق قوم إليه فهم يُزرون ممن جاء بعدهم يقولون : شهدنا بدراً وغيرها ! قال الحارث : وإنما هو ما ترى فلو تقدمنا إليه لَكُنَّا من عِلية أصحابه . قد بقى قومه (أهل مكة) على بُعْدهم منه فى موادعة (يشير إلى صلح الحديبية) وهو مُوقِع بهم وقعة ما وطىء له الأمر ، قال عيينة : أرى والله » [1] !

والحديث بين الرجلين يصور لنا « العقدة التى تكونت فى نفوس أولئك المعاندين

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٧٣٠ .

من ناحية محمد ﷺ ، فهم جميعاً مثل عيينة خائفون منه يترقبون ، والإيمان بعيد جداً من قلوبهم لأن الخوف من محمد والكراهة له والحسد لما وفق إليه ، كان يأخذ عليهم طرق التفكير جميعاً ، فهذا الرجل - عيينة - يركض بفرسه خائفاً من بشير بن سعد وثلاثون فرساً معهم ، ثم إنهم لم يكونوا فى طلبه ولكنه يجرى خوف الإسار ، ومع أن الحارث بن عوف المرى كان يرى الدخول فى أمر محمد ، إلا أنه كان يتردد وينتظر ما يكون بينه وبين قريش (وكان ذلك قبل فتح مكة) ولعله كان يرجو أن تنتصر قريش على أمة الإسلام وبقية الخبر - ولم نأت بها هنا لطولها وإنما نكتفى بالقول بأنهم جميعاً كانوا حتى فتح مكة يفكرون فى السير إلى المدينة مجتمعين ومهاجمة الإسلام فى عقر داره .

وعيينة فى كلامه يفصح عن نفس الشعور الذى كان يملأ نفوس زعماء المكيين الذين أقاموا على الكفر ، فهم يحسبون أنهم إذا دخلوا الإسلام كانوا تابعين لغيرهم ، وهذا أمر لا يريدونه ، فهم ما يزالون سادة فى مجتمعهم رغم تدهوره ، ثم إنهم لا يريدون الدخول فى الإسلام لأن أوان ذلك قد تأخر فى ظنهم وأصبحت لهم فى أمته مكانة وسابقة ، فإذا دخل هؤلاء الرؤساء الإسلام لم يكن لهم مفر من أن يكونوا بعد هؤلاء السابقين وهو أمر لا تقبله نفوسهم .

وكان رسول الله ﷺ يدرك هذا من دواخل نفوسهم فقد منحه الله سبحانه من سعة الإدراك ، ونفاذ البصيرة ما يبعث على العجب . وما نقول هذا لمجرد التمدح فى المصطفى ، فما هو بحاجة إلى مدحنا أو مدح أحد من العالمين بعد أن امتدحه ربه سبحانه وتعالى ، وهذه بينات الواقع التاريخى بين أيدينا أبلغ من كل مقال .

فانظر إلى تصرف الرسول الكريم مع كبار القرشيين الذين طاعوا لأمة الإسلام عند فتح مكة دون أن يدخلوا فى الدين ، فقد أذن لهم فى أن يشتركوا فى القتال مع المسلمين فى حُنَيْن ، وما كان قبل ذلك يسمح قط لغير المسلم بأن يشترك فى جيوش الإسلام ، ولكنه فتح أمامهم بهذه السماحة الباب ليحضروا مشاهد الإسلام إلى جانب أهل السابقة إلى الإسلام لكى يريهم أن الباب لا زال مفتوحاً أمامهم ، ليكسبوا شرف الاشتراك فى الجهاد . ومع أن هؤلاء القرشيين جميعاً - وكان عدد من اشترك

منهم فى حنين ألفين - خيبوا ظن الرسول وكانوا فى مقدمة الفارِّين للصدمة الأولى لأنهم لم يعرفوا بعد ضراوة جهاد المؤمنين ، وكادوا يجرُّون الهزيمة على المسلمين، مع ذلك فإن رسول الله لم يغضب عليهم ولا وجَّه إليهم كلمة عتب . بل هذا هو يعطيهم بسخاء من مغانم حنين . وَحَبَس فى نفس الوقت العطايا عن كبار الأنصار لا ضَنّاً بها عليهم بل لكى يُشعِرَ أولئك المعاندين بأنهم قد امتازوا بشىء ويتخلصوا من شعور المهانة الذى كان يملأ نفوسهم ، وشعور المهانة هذا أوجد فى نفوسهم شعوراً من النفور من الإسلام ، فأراد الرسول أن يزيل هذا النفور ، ولم يدرك الأنصار أول الأمر مغزى ما رمى إليه الرسول ، ووَجِد بعضهم فى نفسه حتى بَيَّنَ لهم الرسول ما رمى إليه فى خطابه المشهور إلى الأنصار ، وهو متداول فى أيدى الناس .

وأوفى صورة له نجدها فى مغازى الواقدى (٣/ ٩٥٨) ولا يمنعنا من إيراده إلا الخوف من التطويل . ولكننا نقف عند العبارة التى تعنينا فى موقفنا هنا : « وجدْتم فى أنفسكم يا معشرَ الأنصار فى شىء من الدنيا تَأَلَّفت به قوماً ليُسْلِموا ووَكِلْتكم إلى إسلامكم .. » فهذا كان غرض رسول الله : استئلاف قلوب المشركين بالمال . فهم لا زالوا بَعْدُ جفاة تقنعهم الدنيا . أما الأنصار فإيمانهم وحب رسول الله إياهم أغلى عندهم من كل شىء . وقد بلغ رسول الله ما أراد من صواب القول والتصرف فى هذه المناسبة ، فقد رقق المال قلوب المشركين ومسَّتْ كلمات الرسول قلوب الأنصار وخرج الإسلام ورسوله فائزين فى الحالين .

والحق أن رسول الله ﷺ عندما كان يكرم صفوان بن أمية ، أو سهيل بن عمرو ، أو حُويطِب بن عبد العزى وغيرهم من أئمة الكفر ، كان يعرف أنهم سيدخلون الإسلام ، بعضهم عن إيمان ، وبعضهم عن استسلام أو تسليم لأمر واقع ولا حيلة لهم فى دفعه . وكان الرسول يرجو أن تمس بشاشة الإيمان قلوبهم ، وقد حدث هذا وخاصة مع رجل له حسب ومحتد مثل عكرمة بن أبى جهل ، والإيمان فيما يقولون حسب ونسب ، وعكرمة بن أبى جهل ، رأس مخزوم بعد أبيه ، أما صفوان بن أمية بن خلف فكان من جُمَح، وسهيل بن عمرو كان سيد بنى عامر بن لؤى وكذلك كان حويطب بن عبد العزى من عامر بن لؤى فلا عجب أن أحداً من هؤلاء لم يحسن

إسلامه كما حَسُن إسلام عكرمة بن أبى الحكم عمرو بن هشام و« خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام » كما قال الرسول الصادق ﷺ .

ولكن الرسول عندما كان يغض الطرف عن هَفَوات صفوان بن أمية وفعاله ، لم يكن ينظر إليهم بل إلى قريش من ورائهم ، فأولئك أفراد أما قريش فقبيلة رفيعة المكانة ولها قدرها . وغالبية قريش كانت قد دخلت الإسلام عن نية صادقة واعتزاز بأن رسول الله ﷺ من شجرة قريش ومن أبناء مكة . فالمراعاة هنا لم يكن يقصد منها فى النهاية إلا قريش القبيلة ، وكان لها فى نفس النبى مكان أى مكان كما سنرى . وإكرام السادة القدامى ثم إسلامهم من شأنه أن يعطى إيمان بقية القرشيين بُعداً وعُمقاً جديدين . وهذا كان له فيما بعد أثر حاسم ، وقريش التى عاملها رسول الله ﷺ بهذه الإنسانية الإسلامية ستحمل عن جدارة لواء الإسلام ، ففى قريش هذه أخلاق سيادة وتقاليد جاه وحسب وسؤدد ، والجماعة الإسلامية فى حاجة إلى رؤوس ورجال من هذا الطراز . وما كان شىء من ذلك كله بخَافٍ على رسول الله .

ولدينا خبر طريف يرويه الواقدى عن إسلام صفوان بن أمية يقول : « ويقال إنه (أى صفوان) طاف مع النبى ﷺ والنبى يتفحص الغنائم (غنائم هوازن) إذ مر بشِعْب (قطيع ماشية) مما أفاء الله عليه فيه غنم وإبل ورعاؤها مملوء فأعجب صفوان ، وجعل ينظر إليه ، فقال رسول الله ﷺ : أعجبك يا أبا وهب هـذا الشِّعْب ؟ قال : نعم! قال : هو لك وما فيه . فقال صفوان : أشهد ما طابت بهذا نفسُ أحدٍ قط إلا نبى، أشهد أنك رسول الله ! »[1] وهكذا اقتنع الرجل فى لحظة بشىء من النَّعم أو بلُعاعة من لُعاعات الدنيا كما قال الرسول ﷺ فى خطابه إلى الأنصار . ولم يقتنع هذا الرجل بالقرآن الكريم عشرين سنة ! وسبحان من خلق الناس معادن ! وصلوات الله على من أجرى الله الإيمان والحكمة على فؤاده وعقله ولسانه .

ومثل هذا يقال عن صبر الرسول على أعراب أجلاف مثل عُيَيْنَة بن حصن والأقرع بن حابس وعامر بن عوف النصرى . فقد طالما صبر الرسول على عيينة وأغضى عن أفاعيله ولكنه كان ينظر إلى مَن ورائه من غطفان . ومن وراء الأقرع بن

(١) الواقدى ، مغازى ٣/ ٩٤٦ .

حابس كان رسول الله ينظر إلى تميم ، ومن وراء عامر بن عوف النصرى كان ينظر إلى هوازن ، ومن وراء أبى مِحْجَن الثقفى كان ينظر إلى ثقيف ، وهؤلاء الأفراد زوائل ، أما القبائل فهى الباقيات . ومنها ومن أمثالها ومن قريش ستكون النواة العربية لأمة الإسلام .

وإليك حكاية يرويها ابن إسحاق والواقدى قالا : إن وفد هوازن عندما أتى إلى الجِعِرَّانة يطلب إلى رسول الله إطلاق سَبْيهم أيقن الرسول أن قريشاً والمهاجرين والأنصار سيستجيبون إلى ما كان يرجو من إطلاق السبى ، وأما الأقرع بن حابس فقد قال : أما أنا وبنو تميم فلا! وقال عيينة بن حصن : أما أنا وفزارة فلا ! وقال عباس ابن مرداس السُّلَمى : أما أنا وبنو سُلَيم فلا ! قالت بنو سُليم : ما كان لنا فهو لرسول الله . فقال العباس : وَهَنتُمونى ! ثم قام رسول الله ﷺ خطيباً فى الناس فقال لهم : إن وفد هوازن أتاه يطلب إطلاق السَّبْى فخيَّرهم الرسول بين الغنائم والسبى . قال الواقدى : فلم يعدلوا بالنساء والأبناء شيئاً ، فمن كان عنده منهن شىء فطابت نفسه أن يرده فليرسل إلىَّ ومَنْ أبى منكم وتمسك بحقه فليرد عليهم ، وليكن علينا (أى على الرسول) ست فرائض من أول ما يفيض الله علينا ! « قالوا : يا رسول الله رضينا وسلمنا ! »

وهكذا تمسك الزعماء بالجاهلية ، وتمسكت الجموع بالإسلام ! ومع ذلك فلم يشأ الرسول أن يفرض عليهم شيئاً إلا بعد أن جعل الناس جميعاً على الجلية ووكلهم إلى نفوسهم ، وطلب إلى الناس أن يردوا السبى طواعية ، ولكل من رَدّ سِتُّ ناقات عن كل سبية أطلقها . وهنا أيضاً أكدت الجموع أنها تختار الإسلام . وردَّت السبايا دون مقابل ، ودخلت هوازن الإسلام عن حب وإيمان ، فكأنها لم تُهزم فى حنين أو أوطاس، وإنما نصرها الله من عنده بفضل نبيه ورسوله بعد الهزيمة .

وأما مالك بن عوف النصرى قائد هوازن فقد لقى من الرسول كرامة لم يكن ينتظرها ، فإن الرسول أوقف من أسر من أهله وما أخذ من ماله ، وقال : إنه يطلق سراحهم إذا أسلم مالك ، وقال : إنه يرد عليه ماله ويعطيه مائة من الخيل . فلما عرف مالك ذلك هرب من ملجئه فى الطائف ووفد على الرسول ﷺ وأسلم واستعاد ماله

وأهله وتولى مغازاة ثقيف ، ونهب سَرْحهم فيغنم ما يستطيع ويرسل خُمْس مغنمه إلى رسول الله : مرة مائة ، ومرة ألفاً . وقد استاق لهم ألفى شاة فى غزاة واحدة ، فكان عمل مالك بن عوف هذا من آكد الأسباب فى إسلام ثقيف والطائف ، فهم كانوا يعتصمون من أمة الإسلام بقريش من ناحية وببعض القبائل ممن كان على رأيهم من هوازن وبعض بنى سليم بن منصور من ناحية أخرى . فهذه مكة قد دخلت الإسلام وانتهت مقاومة قريش ، وها هى هوازن ومَنْ لَفَّ لَفَّها قد دخلوا الإسلام وناصبوا ثقيفاً العداء ، فلم تستطع الصبر على هذه الحال ، ولم يبق لها عن الإسلام والاستسلام مندوحة .

وكان عروة بن مسعود شيخ ثقيف أسرع أهل قبيله إلى إدراك الحقيقة ، وكان بطبعه رجلاً ميالاً إلى الدين ، وقد قال فيه رسول الله ﷺ عندما أهلَّ عليه فى قضية الحديبية: هذا رجل يتألَّه وكان رئيس الأحلاف من ثقيف ، فلما رفع رسول الله الحصار عن الطائف ومضى إلى الجعرانة خرج عروة بن مسعود وذهب إلى اليمن ليتعلم صنع العرادات والمنجنيقات وأدوات حرب الحصار ، فلما عاد وسمع عن صنع رسول الله ﷺ مع هوازن وكفار مكة ، وقع الإسلام فى قلبه فخرج إلى رسول الله ﷺ ، واستأذن الرسول فى أن يعود إلى الطائف ليدعو أهله للإسلام .

وكان الرسول يعرف أن وقت الهدى للثقفيين لم يكن قد حل بعد ، فقد كان تعلُّقهم بربتهم اللات شديداً ، وكان خوفهم من الإسلام قد زادهم استمساكاً بها ، وحسبوا أنهم إذا فرطوا فى ذلك ضاعوا ، فلما أتاهم عروة بالإسلام وقال لهم فى كلام كثير : فما حملنى على الإسلام أنى رأيت أمراً لا يذهب عنه ذاهب ، فاقبلوا نُصحى ولا تستعصونى فوالله ما وفد وافد على قوم بمثل ما وفدت به عليكم ! فاتهموه واستَغشوه وقتلوه ، فما راعهم بعد ذلك إلا ومالك بن عوف النصرى شيخ هوازن ينحى عليهم بالمغازاة والنهب ووجدوا أنفسهم فى أضيق من سَمِّ الخياط .

وكان أبو مُلَيح بن عروة وابن أخيه قارب بن الأسود قد غضبا لمقتل عروة بن مسعود الثقفى فلحقا بمحمد ﷺ وأسلما ، ثم لم يلبث رجال الأحلاف ورجال عبد ياليل أن وجدوا ألاَّ مهرب لهم من أمر الله ، فسار منهم وفد إلى رسول الله وأسلموا

ودخلت ثقيف فى أمة الإسلام وكان ذلك فى عام ٩ للهجرة ، وهو عام الوفود ، عام إسلام بقية شبه الجزيرة .

وكان رسول الله ﷺ قد أقام على مكة قبل مغادرته إياها رجلاً من بنى عبد شمس هو عتاب بن أسيد وكان اختياراً موفقاً لأن عتابا كان من ذؤابة آل عبد شمس ، فلا يقال إنه جعل على مكة رجلاً من بنى هاشم . وكان عتاب قد أسلم عند الفتح ، فلا فضل له على أحد من مسلمى الفتح فلا يخشى المكيون أن يمتن عليهم بأنه من أهل السابقة والصدارة فى الإسلام . ورزقه الرسول عن عمله درهمين فى اليوم وقد سعد بها الرجل وقال : فلا أشبع الله بطناً لا يشبعه كل يوم درهمان ! ولم يكن الأمر فى هذه المرحلة مِنْ تطور أمة الإسلام أمر ولاية ورياسة ، وإنما هو إشعار لأهل مكة بأنهم قد صاروا جزءاً من أمة الإسلام ، ولهذا لم يعلق أحد من القرشيين على ذلك بكلمة ، وظل عتاب على أمره حتى توفى يوم توفى أبو بكر الصديق رضى الله عنه . ولما كان عتاب حديث العهد بالإسلام فقد أقام الرسول معه أبا موسى الأشعرى ليعلم الناس الدين.

وكان رسول الله يدعو أهل الإسلام إلى الهجرة إلى دار الهجرة ، فهاجر من أهل مكة إلى المدينة بشر كثير . ولكن نفراً من كبار المكيين استحبوا أن يقيموا بمكة وصعبت عليهم الهجرة ، فأَذِن لهم رسول الله فى ذلك . ومن هؤلاء صفوان بن أمية وكان قد حضر مع رسول الله ﷺ معركة حنين وهو على دينه ، لأن رسول الله أمهله مدة أربعة أشهر ، وكان فى هذه الوقعة أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو وغيرهما من أئمة الكفر ، ولم يكن قد أسلم منهم غير أبى سفيان .

وقد روى الواقدى خبراً ينم عن طبيعة إسلام أولئك النفر فى تلك المرحلة الأولى من حياتهم مع الإسلام قال : « فلما كانت الهزيمة حيث كانت (يريد أول معركة حنين) والدائرة على المسلمين فتكلموا بما فى أنفسهم من الكفر والضّغن والغش . قال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ! قال : يقول رجل من أسلم يقال له أبا مقيت : أما والله لولا أنى سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن قتلك لقتلتك ! وقال : صرخ كَلَدَة بن الحَنبل وهو كلدة بن الحنبل أخو صفوان لأمه ، أسود من

سودان مكة : ألا بَطُل السحر اليوم ! فقال صفوان : اسكت فضَّ الله فاك ، لأن يربَّنى رَبّ من قريش أحب إلىَّ من أن يَرُبَّنى رب من هوازن . قال : وقال سهيل بن عمرو : لا يجتبرها محمد وأصحابه . قال يقول له عكرمة : هذا ليس بقول وإنما الأمر بيد الله وليس إلى محمد من الأمر شىء . إن أديل عليه اليوم فإن له العاقبة غداً . قال : يقول سهيل : إن عهدك بخلافه لحديث ! قال : يا أبا يزيد ، إنَّا كُنَّا والله نُوضِع فى غير شىء ، وعُقولنا عقول تعبد حجرًا لا ينفع ولا يضر !

فهذا كلام ناس كانوا إلى ذلك الحين بعيدين جداً عن الإسلام والإيمان ، وربما كان أقربهم إلى الإسلام عكرمة . فهذا أسلم لله ولم يسلِّم بعد لمحمد ، وقد فقد ثقته فى الأحجار لأنها لا تنفع ولا تضر ، ونقل الثقة إلى الله فهو الخالق الذى ينفع ويضر ، ومحمد عنده ليس له من الأمر شىء . وبعد قليل سيريد الله بعكرمة مزيداً من الخير ، فيرى أن محمداً أعظم مما قدَّر ، ولا يزال الأمر به حتى إذا أصيب فى أجنادين وحضره الموت نظر إلى أبى عبيدة وهو يجود بنفسه شهيداً ، ويقول : أليست هذه ميتة يرضى عنها رسول الله ؟! وأما أبو سفيان فقد كان لا يزال حاقداً على محمد ﷺ يتمنى قلبه أن يتشفى فيه ، ومثله فى ذلك صفوان بن أمية بن خلف . وأما كلدة بن الحنبل أخو صفوان لأمه ، فكان متعلقاً بعد بحكاية السحر ، وهو يحس أن محمداً ﷺ قد انهزم وبَطُل سحره ، فأكذبه الله بعد ذلك بنصر محمد النصر المؤزر بقية اليوم . ولا ندرى ماذا قال بعد .

ورغم ذلك كله فقد حرص رسول الله على الحفاظ على قريش ما أمكنه ذلك ، فبعد فتح مكة يُؤْثَر عنه أنه قال : « لا تُغْزَى قريش بعد اليوم إلى يوم القيامة »[1] .

وكان رسول الله ﷺ يعلم أن أئمة الكفر عندهم مال فلم يمسه ، ولما كان قد منع أصحابه من أن يمسوا شيئاً من أموال أهل مكة ، وكان فيهم الكثير من الضعفاء أى الفقراء ، فاستسلف أو استقرض ﷺ لهم مالاً من سراة قريش . استقرض من صفوان ابن أمية ٥٠,٠٠٠ درهم فأقرضه ، ومن عبد الله بن أبى ربيعة ٤٠,٠٠٠ درهم ، ومن حويطب بن عبد العزى ٤٠,٠٠٠ درهم . فكانت (جملة ما استسلف)

---

(١) الخبر رواه الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٦٢ والتعليق على الحديث من الواقدى .

١٣٠,٠٠٠ درهم فقسمها ﷺ بين أصحابه من أهل الضعف [١] وردها بعد ذلك .
وقبل أن يخرج إلى حنين كان صفوان بن أمية قد استأذنه وطلب منه أن يمهله حتى يدخل الإسلام ، فأمهله أربعة أشهر ، وعندما أزمع الخروج إلى حنين خرج معه صفوان وهو كافر وأرسل إليه يستعيره سلاحاً ، فأعاره سلاحاً : مائة درع بأداتها فقال : طوعاً أو كرهاً ؟ فقال رسول الله ﷺ « عارية مؤداة » ، فأعاره فأمره ﷺ فحملها إلى حنين فشهد حنيناً والطائف ، ثم رجع رسول الله إلى الجعرانة [٢] .

ولنلاحظ هنا أن صفوان كان عدواً مغلوباً مستأمِناً ، وكل قوانين الحرب فى الدنيا إلى يومنا هذا تجعل سلاح المغلوب ملكاً للغالب ، وأن الأمان فى هذه الحالة لا يشمل السلاح ، وكان من حق رسول الله ﷺ - بكل مقياس - أن يأخذ هذا السلاح للمسلمين بل كان لابد أن يأخذه إذ كيف يجوز لرجل ممن غُلبوا واستسلموا من الكفار - الذين ظلوا على كفرهم - أن يملكوا سلاحاً قد يستخدمونه ضد المسلمين؟ ولكن كرم الرسول تجاوز ذلك أيضاً رغبة منه فى الحفاظ على كرامة القرشيين ، وقد أثبتت الأيام أنه على حق .

فصفوان هذا عندما تقوم حركة الرِّدة يقوم فى أهل مكة مقاماً عظيماً ويطلب إليهم أن يظلوا مع الأمة والجماعة ، فظلوا إلى جانب أبى بكر . وعكرمة بن أبى جهل يخرج لحرب الردة وينفق على نفسه ورجاله من ماله ، ويسأله أبو بكر إن كان يريد عوناً فيقول إنه لا حاجة به إلى عون ، فقد جهز نفسه بماله ومعه فوق ذلك ألفا دينار لنفقته، وهذا كله لأن رسول الله ﷺ احتفظ لهؤلاء الرجال بشرفهم وكرامتهم ، فدخلوا الإسلام كرماء شرفاء ، وثبتوا معه شرفاء كرماء . فتصور لو أن رسول الله لم يكن هذا من فعله ، فكيف كان ينتظر الكرامة والشهامة والشرف من قوم أذل نفوسهم وكسر شرفهم ؟

رَسُول الله وقُريش :

وطبيعى أن يظل رسول الله يحب قومه قريشاً ، فهم آله ولا يتنكر الكريم لأهله

---

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٦٣ وأهل الضعف أو الضعفاء هنا هم الفقراء .
(٢) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٥٤ .

قط. وإذا كان قد حاربهم فللدين وعلى الدين ، وعندما انتصر عليهم وطاعوا للدين بقى الحب فى نفسه فهو قرشى ولدينا دلائل على هذه القرشية الكريمة بلا عصب وإنما هو اعتزاز الرجل الشريف بأهله الأشراف ، وهذه مسألة لا وجود فيها للعصب أو العصبية ، وإنما هى مظهر لكرامة الإنسان عند الرجل الكريم .

روى الواقدى بسنده قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة جلس عبد الرحمن بن عوف فى مجلس فيه جماعة ، منهم سعد بن عبادة ، فمر نسوة من قريش على ذلك المجلس ، فقال سعد بن عبادة : قد كان يُذكر لنا عن نساء قريش حُسْن وجمال ، وما رأيناهن كذلك ، قال : فغضب عبد الرحمن بن عوف حتى كاد أن يقع بسعد وأغلظ له ، ففرَّ منه سعد حتى أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! ماذا لقيتُ من عبد الرحمن ! فقال رسول الله ﷺ : وما له ؟ فأخبره بما كان قال : فغضب رسول الله ﷺ حتى كأن وجهه ليتوقد ، ثم قال : رأيتَهُن وقد أُصِبْنَ بآبائهن وأبنائهن وأخواتهن وأزواجهن . خير نساء ركبن الإبل نساء قريش ! أحناهن على ولد ، وأبذلهن لزوج بما ملكت يد [1] .

وليس أدل على ما كان عليه رسول الله ﷺ من رأى كريم فى قريش من وصاته لعتاب بن أسيد عندما ولاه على مكة ، فقد خلف معه معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعرى يُعلِّمان الناس القرآن والفقه فى الدين ، وقال له : « أتدرى على من استعملتك ؟ قال : الله ورسوله أعلم ! قال : استعملتك على أهل الله » يريد أهل بيت الله ، وفى ذلك من التكريم لقريش ما فيه .

ومن دلائل الذكاء المفرط عند رسول الله ﷺ أن قال بعد ذلك يوصى عتاباً : « بلِّغ عنى أربعاً : لا يصلح شرطان فى بيع ، ولا بيع وَسَلف ، ولا بيع ما لم يُضمن ، ولا تأكل ربح ما ليس عندك »[2] وقد اهتم رسول الله بهذه التوصيات من المعاملات لأن عتاباً تولى بلداً أهله تجار ، ومن ثَمَّ فقد رسم له منهجاً فى تنظيم البيوع على أساس الإسلام ، فقد كانت الأمور التى حذره رسول الله منها من أساليب القرشيين فى

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٨٦٧ .
(٢) الواقدى ، مغازى ٣/ ٩٥٩ .

البيوع فى الجاهلية ، وكلها أساليب تؤدى إلى الربح غير الحلال ، وهذه أنواع من البيوع والتعامل فى المال يعرفها فقهاؤنا ويعرفون حكم الإسلام فيها وعلَّة ذلك الحكم ، والذى يهمنا هنا هو أن الرسول يعرف أن القرشيين تجار وأن تجارتهم قد أصابها ضرر ، وأنه لابد من تشجيعهم لكى يعودوا إلى تجارتهم حتى لا يحتاجوا ، ولكنه أراد لهم أن يتاجروا ويتبايعوا على حكم الإسلام حتى لا يقعوا فى الجاهلية مرة أخرى .

وهذا العطف كله نابع من إنسانية محمد ﷺ ، فلم يكن رفقه قاصراً على قريش بل على أصحابه أجمعين ، فقد سار ﷺ إلى الجِعِرَّانَة بعد أن رفع الحصار عن الطائف وإلى جواره أبو رُهْم الغفارى « وفى رجليه نعلان له غليظتان ، إذ زحمت ناقته ناقة رسول الله ﷺ ويقع حرف نعله على ساقه فأوجعه ، فقال رسول الله ﷺ : أوجعتنى ، أَخِّر رِجْلك ! وقرع رِجْله بالسوط ، قال (أبو رهم) : فأخذنى من أمرى ما تقدم وما تأخر ، ووصل الرسول إلى الجِعِرَّانة وانصرف أبو رُهم إلى شأنه وخاف أن يعتب عليه رسول الله فخرج يرعى غنم المسلمين ، فإذا بمن يقول له : طلبك رسول الله ! فذهب إليه الرجل وهو خائف يترقب ، فقال له الرسول : « إنك أوجعتنى برِجْلك فقرعتك بالسوط ، فخذ هذه الغنم عوضاً من ضربتى » قال أبو رهم : فرِضَاه عنى كان أحب إلىّ من الدنيا وما فيها »[1] .

ومثله حدث لأبى حَدْرَد الأَسلمى مع رسول الله : فقد زحم للرسول فى المُراكبة ، فدفع الرسول رِجْله بِمِحجَن . ثم روَّى الرسول الأمر فى الليل فبعث إلى أبى حدرد يسترضيه عن دفعه إياه بالمحجن وعوَّضه بثمانين شاة حقائقة أى : كثيرة الصوف ، ومثل ذلك وقع لأبى زرعة الجهنى مما رواه الواقدى وأهل السِّيَر [2] .

وكانت هذه وأشباهها مظاهر من ذلك الأدب المحمدى الرفيع والرفق الذى يشمل هوازن كلها ، وثقيفاً كلها ويألم لضربة أو دفعة بمحجن أصاب بها أحداً من أصحابه ، وهذه كلها شمائل محمدية لو وعاها حكام الإسلام لما كان فى الدنيا مثلهم

---

(١) الواقدى ، مغازى ٣/ ٩٣٩ .
(٢) نفس المصدر ٣/ ٩٤٠ - ٩٤١ .

حكام ! ولظلت أمة الإسلام فى مثل العزة التى كانت عليها فى خلال حياة محمد ، ولو كان هذا المثال المحمدى قائماً فى خلد معاوية لما أمر بقتل حجر بن عدىّ عقاباً له على الشهامة وإنكاره سب رجل من أكرم الناس على الله ورسول الله ، هو على بن أبى طالب ؟ وهل دار شىء من ذلك بخلد أبى العباس السفاح - وهو يزعم أنه ابن عم رسول الله ﷺ ، وهو يأمر بقتل أبى سلمة الخلال عقاباً له على الإخلاص لآل محمد وهو الذى كان أبو العباس نفسه يسميه وزير آل محمد ؟

لا هذا كان ولا ذاك ، إنما هى النفوس ارتدت إلى الجهالة والبصائر عَشِيت فلم تر النور المحمدى وتحجرت القلوب وحق عليها الخزى والعذاب ولو غيَّروا ما بأنفسهم لتغير تاريخ الإسلام ، وصدق الله سبحانه : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد] ولو أن المسلمين ذكروا المثال المحمدى فى كل عمل يعملونه، ولو أنهم لزموا غرز رسول الله فعلاً لكانوا أبد الدهر أعز الناس ، وأكرم الناس ، وأعلم وأقوى الناس .

ضعف مَركز القرشيّين فى الأمة عَقب فتح مَكّة :

الآية الخامسة من سورة القصص (٢٨) من مشهورات آيات الكتاب الكريم التى تجرى بها ألسنة الناس فى كل حين ، لأنها من آيات القدرة الإلهية ذات الصدى والرجع على مدى التاريخ : ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** ﴿٥﴾ ﴾ [القصص] وما من جماعة مستضعفة نظر الله إليها ونصرها على الجبابرة إلا جعلها بنصره على رأس الناس ، ومن أظهر الأمثلة على ذلك فى تاريخنا أن جماعة الموحدين أصحاب الدولة المشهورة فى المغرب الإسلامى كُتِب تاريخ نصرها بقلم مؤرخها عبد الملك بن صاحب الصلاة وجعل عنوان التاريخ : «المنُّ بالإمامة على المستضعفين فى الأرض » .

ولابد أن هذه الآية ترددت فى قلوب المؤمنين وهم عائدون إلى المدينة بعد أن نصرهم الله نصره المؤزر وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين ، ولكن زعماء قريش الذين أسلم بعضهم واستسلم بعضهم الآخر كانوا جِدَّ بعيدين عن هذه المعانى . ورغم حرص الرسول صلوات الله عليه على جبر ما انكسر من عزة نفوسهم لم يكن فى

خاطر معظمهم إلا أنه نصر الأوس والخزرج على قريش أو نصر اليمن على مضر ، فقد كان إحساس أولئك الناس بالعصبية القبلية قوياً جداً .

وفى موقعة حنين تأكد هذا الشعور بالانغلاب فى نفوس القرشيين ، وكذلك تأكد الشعور بالغَلب والنصر فى نفوس بعض الأوس والخزرج وقد اشترك فى حنين ألفان من قريش فيهم سراتهم « على غير دين ركباناً ومشاة ينظرون لمن تكون الدائرة فيصيبون من الغنائم ولا يكرهون أن تكون الصدمة - أى المصيبة - لمحمد ﷺ وأصحابه . وخرج أبو سفيان بن حرب فى أثر العسكر ، كلما مر بترس ساقط أو رمح أو متاع من متاع النبى ﷺ حمله ، والأزلام فى كنانته حتى أوقر جمله . وخرج صفوان ولم يسلم وهو فى المدة التى جعل له رسول الله ﷺ فاضطرب خلف الناس ومعه حكيم بن حزام وحويطب بن عبد العُزَّى ، وسُهَيْل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب والحارث بن هشام ، وعبد الله بن أبى ربيعة ، ينتظرون لمن تكون الدائرة ، واضطربوا خلف الناس والناس يقتتلون فمر به (صفوان) رجل فقال : أبشر أبا وهب ! هُزِم محمد وأصحابه ! فقال له صفوان : إنَّ ربّاً من قريش أحبّ إلىّ من رب من هوازن إن كنت مربوباً »[1] . والرب هنا هو السيد .

وكان العهد بقريش والقتال قد بَعُد ، وأين هم من رجال أمة المدينة الذين قضوا السنوات العشر الماضية فى ميادين القتال حتى كسبوا دربة فى القتال النظامى ، وموقعة حنين هى الثالثة والسبعون فى سجل مغازى رسول الله ، فليس غريباً أن يكون المسلمون يوم هوازن أصحاب خبرة وتجربة مكَّنتهم من احتمال صدمة هوازن التى هبت إعصاراً ، ثم عادوا فتجمعوا وحملوا على عدوهم ففازوا بنصر لا كفاء له ، وأكبر دليل عليه أن كل الذين قُتِلوا من المسلمين فى هذه المعركة الهائلة التى بدأت فى خوانق وادى حنين وانتهت فى بسائط سهل أوطاس كانوا أربعة ، فقد ذكرهم الواقدى بالاسم . وفى حنين استحر القتل فى بنى نصر والرباب - من هوازن - وصاح صائح : « يا رسول الله ، هلكت بنو رباب ، ويقول رسول الله ﷺ: اللهم اجبر مصيبتهم »[2].

(١) الواقدى ، مغازى ٣/ ٨٩٤ - ٨٩٥ .
(٢) الواقدى ، مغازى : ٣/ ٩١٦ .

والذى حدث فى حنين أنه كان قتالَ جيش نظامى مع جيش قبلى من الأعراب ، فإن أمة المدينة كانت كلها جيشاً من المواطنين والراغبات من المواطنات ولا إعفاء من فرض القتال إلا للصغير غير القادر على حمل السلاح ، والمريض البادى المرض ، وغزوة تبوك التى وقعت بعد حنين كانت الاختبار الحاسم . وسورة براءة التى نزلت بعد تبوك مباشرة ، وكانت كذلك آخر ما نزل من القرآن حسمت الموضوع : لا تخلُّف عن القتال إلا بعذر يقبله الله ورسوله ، فقد كانت أمة الإسلام فى أيام غزوة تبوك قد قضت الأعوام العشرة السابقة عليها فى ميدان القتال واكتسبت خبرة وتجربة وأصبحت أمة مقاتلة أو ما يسمى فى مصطلحنا المعاصر جماعة مناضلة Militant group ومحمد صلوات الله عليه علَّم أفراد الأمة النظام والطاعة ، ودربهم على الحرب النظامية .

واستمع لما يقوله الواقدى عن موقعة حنين تفهم حقيقة الوضع . قال : «ولما كان من الليل ، عمد مالك بن عوف إلى أصحابه فعبأهم فى وادى حنين وهو وادٍ أجوف ذو شعاب ومضايق . وفرَّق الناس فيه ، وأوعز إلى الناس أن يحملوا على محمد وأصحابه حملة واحدة . وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه وصفَّهم صفوفاً فى السَّحر ووضع الألوية والرايات فى أهلها : مع المهاجرين لواء يحمله علىّ عليه السلام ، وراية يحملها سعد بن أبى وقاص ، وراية يحملها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وفى الأنصار رايات مع الخزرج لواء يحمله الحباب بن المنذر ، ويقال : لواء الخزرج الأكبر مع سعد بن عبادة ، ولواء الأوس مع أسيد بن حضير ، وفى كل بطن من الأوس والخزرج لواء وراية .. »[1] .

فهذا إذن جيش فيه قواد ، وتحت القواد قواد ، ولكنه ليس جيشاً محترفاً ، إنها أمة جيش ، أو جيش أمة ، فالذى يحمل اللواء قائد ، وهو بمثابة الضابط العظيم الذى لا تظل له هذه الدرجة إلا أثناء المعركة ، وبعدها يعود مواطناً عادياً . والجيش على هذه الصورة وحدة عسكرية ذات قيادة واحدة ووجهة واحدة ونظام محكم ، أما مالك بن عوف النصرى فسيّد قَبَلِى يقود قومه على أسلوب الجاهليين يخبئهم فى بطن الوادى

(١) الواقدى ، مغازى ٣/ ٨٩٥ .

ويوصيهم بأن يكروا على المسلمين كَرَّةَ رجل واحدة وقد كروا فعلاً وزعزعوا بعض الصفوف عند الصدمة الأولى ، ولكن الذين زُعْزعوا كانوا خيل بنى سليم بن منصور فولوَّا وتبعهم أهل مكة وبعض الناس منهزمين لا يلوون على شىء .

« قال أنس : فسمعت رسول الله ﷺ والتفت عن يمينه ويساره والناس منهزمون وهو يقول : يا أنصار الله وأنصار رسوله ! أنا عبد الله ورسوله صابر ! قال : ثم تقدم بحربته أمام الناس فو الذى بعثه بالحق ، ما ضربنا بسيف ولا طَعَنَّا برمح حتى هزمهم الله ، ثم رجع النبى ﷺ إلى العسكر وأمر أن يُقتل من قُدِر عليه منهم وجعلت هوازن تُوَلى وثاب من انهزم من المسلمين »[1].

والذى حدث أن هوازن هجمت فى عنف ولكن دون وزن عام ، أما المسلمون فكانوا جيشاً نظامياً ، ولكن الجانب الذى كان فيه بنو سليم وأهل مكة كان قبلياً جاهلياً فولوا منهزمين ، وفى هزيمتهم كادوا يلحقون الفزع فى قلوب المسلمين ، فولَّت منهم جماعة فى إثر المنهزمين ، ولكن رسول الله ثبت ، ونادى رجال جيشه المؤمنين النظاميين فانتبهوا إليه وعادوا . وكان رسول الله يعرف رجاله ، فأمر العباس ابن عبد المطلب بأن ينادى : « يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السَّمُرَة ، قال : فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنَّت إلى أولادها يقولون : يا لبيك يا لبيك فيذهب الرجل منهم فيثنى بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقدِّمها فى عنقه ، ويأخذ ترسه ودرعه ثم يقتحم عن بعيره فيخلى سبيله فى الناس ، ويؤُمّ الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله ﷺ »[2] .

وهكذا عاد جيش المسلمين النظاميين فَتَراصَّ رجاله وثبتوا للعدو ، ولم يلبثوا أن مزقوه إرباً . وهذا هو المنتظر عند لقاء قوة من البدو وغير النظاميين لا يجمعهم إلا العصب ، وجيش من المؤمنين المدربين النظاميين . والمهم عندنا أن قريش الكفر التى أسلم منها من أسلم ، وبقى على شركه من بقى قد تفرقت بدداً ولم يَعُدْ منها إلى الميدان أحد ، وبذلك كانت نهاية قريش الجاهلية ، فقد عرف رجالها أين يكونون من أهل

(١) الواقدى ، مغازى ٣/ ٨٩٧-٨٩٨ .
(٢) الواقدى ، مغازى ٣/ ٨٩٨ - ٨٩٩ .

الإسلام ، وقد ذكرنا أن نفراً من زعمائهم لم يدخلوا المعركة قط ، إنما وقفوا يتفرجون بين الجاهلى الشامت أو الساخر أو الحاقد . وكل تلك لمحات نرى فيها قريشَ الجاهلية وهى تختفى مع الجاهلية ، لتُولد من جديد فى ظل الإسلام وتحت راية محمد .

حتى خالد بن الوليد على عظيم شأنه لا نجد له أثراً فى هذه الواقعة ، ولقد كان الرسول ﷺ قد جعله على رأس أحد الجيوش التى دخلت مكة عند الفتح ، وكان مدخله من الجنوب من ناحية الخندمة والليط ، وتلك هى الناحية الوحيدة التى وقع فيها قتال ، لقد قال المؤرخون فى ذلك وأكثروا ، ولكن تفسيره عندنا أن خالداً لم يكن قد تعلم القتال على شرط الإسلام : قتال فتح لا قتال نصر بأى سبيل ، فهو قد وجد معارضة أمامه فاكتسحها ، وقد أنكر الرسول ذلك ولكنه لم يفعل أكثر من الإنكار لأنه فى الحقيقة كان يرجو أن يطوِّع مَلَكة خالد العسكرية للإسلام ، ولهذا فقد جعله على مقدمته عندما سار لحصار الطائف .

وكان رسول الله ﷺ قد خبر خالداً عندما بعثه إلى بنى جذيمة من كنانة أسفل مكة ، فقد تصرف خالد عند ذلك تصرفاً لم يعرفه المسلمون إلى ذلك الحين : قتل قوماً على الظن وهم يُظهرون الإسلام ، وقد رفض مَنْ تحت إمرته من الأنصار أن يقتلوا الناس ، ولكن بنى سليم - وعهدهم بالإسلام قريب - قتلوا أسراهم استجابة لخالد ، وقد أنكر رسول الله فِعْلَ خالد ، وأرسل على بن أبى طالب - وهو فارس الإسلام قلباً ولساناً وعلماً - فأصلح الخطأ . ولكن الرسول مع ذلك لم يَطُلْ غضبه على خالد بل صبر عليه ، لأنه كان يعلم ما عنده ويريد أن يطوع ملكاته للإسلام ، وما فعله رسول الله ﷺ مع خالد يعطينا صورة واضحة عن أسلوبه ﷺ فى تطويع قريش وملكاتها للإسلام لأنه بُعِثَ حقاً ليتمم مكارم الأخلاق ، ولقد أدَّبه ربه فأحسن تأديبه وتصدى هو لتأديب الناس فأحسن أيما إحسان .

قريش تتجه إلى الاشتراك فى قيادة أمّة الإسلام :

وقد حسب ناس من رؤوس مكة أن قبيلتهم قريشاً قد انحدر مقامها بين القبائل ، وظنوا أن بلدتهم مكة انحدرت درجات بعد أن أصبحت تابعة وكانت متبوعة ، وما ذلك إلا لأنهم كانوا لا يزالون ينظرون إلى الدنيا والناس بعيون الجاهليين ولم يدر أحد

منهم أن الله سبحانه عندما سمى مكة فى القرآن الكريم أم القرى فهى عنده سبحانه أم بلاد الدنيا ، ولن تزال كذلك أبد الدهر ، وما أراده الله بقريش من الكرامة يخالف الذى كانوا يظنون ، لأن قريش الكفر إذا كانت قد ماتت فإن الله سبحانه أخرج من صلبها قريش الإيمان ، ومن يكون محمد رسول الله إلا ذؤابة قريش وخياراً من خيار ؟ ومن أولئك الذين يقودون أمة الإسلام فى معارج العز والسيادة بعد رسول الله ﷺ إلا القرشيين ؟ ولله سبحانه فى خلقه شئون ، وله فى تصاريفه عجب يَخْفى على البصائر والأبصار .

ولقد وجد القرشيون المكيون صعوبة كبيرة فى الاندراج فى المجتمع الإسلامى ، وبعضهم لم يحاول الاندراج ، وباستثناء خالد بن الوليد الذى اختاره الرسول للقيادات مرة بعد مرة ، أو عمرو بن العاص الذى قاد سرية ذات السلاسل وبدرت منه أثناءها بوادر لم يحمدها المسلمون مثل إصراره على الإمارة على أبى عبيدة وصلاته دون اغتسال مخافة البرد، لولا هذان فإننا لا نكاد نقرأ عن كبار المكيين الذين فُتِحت عليهم مكة شيئاً ذا بال .

ولقد كانت غزوة تبوك عسيرة على أمة الإسلام ، عانى المسلمون فيها الكثير ، ووقعت فيها من الأحداث ما أراده الله ليكون بعدها موضوع موعظة وتوجيه وبعضها الآخر موضع تشريع كما نجد فى سورة التوبة . ولقد قصد الله فيها إلى لوم مَنْ تخلَّفوا وإنذار آخرين ممن أخذت عليهم فى إيمانهم وسلوكهم مآخذ . ولكننا لا نجد للقرشيين غير المهاجرين فيها ذكراً ، وقد كان المأمول بعدما أسبغ الله ﷻ عليهم من الكرامة بعد حنين أن يكون لهم مقام ولو قليل فى تبوك وما تلاها من سرايا ، وكان فى بعضها مجال عظيم للقرشيين لو أرادوا ، فقد بعث الرسول ﷺ بعد تبوك إلى شمال الحجاز وشمال الجزيرة جملة من السرايا وقد قصد فى بعض سراياه فى هذه الحقبة الأخيرة جماعات من نصارى العرب وعرب الروم وعرب الضاحية من تيماء إلى الشمال ، وهنا كان مجال عمل عظيم للقرشيين الذين كانوا أهل معرفة بهذه النواحى ورجال مثل : أبى سفيان صخر بن حرب ، وصفوان بن أمية بن خلف ، وسهيل بن عمرو وكانوا يعرفون هذه النواحى أكثر مما يعرفها من قصدها وقاد السرايا إليها من

المسلمين ، ولكن كبار المكيين سكنوا فلا نسمع لهم ذكراً فى ذلك كله ، وإذا حدث وكان لبعضهم ذكر من مثل خالد بن الوليد الذى قاد السرية إلى نجران ، فإن الأمر لايتعدى الذكر ، ولا نسبة قط بين ما فعله خالد فى هذه السرية ، وهى بداية الاتجاه المركز إلى اليمن وبين ما فعله على بن أبى طالب وهو مثال القرشى المهاجر قديم الإسلام .

ولكن عندما ينتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى وترتج المدينة ، وتنتقل الرجة إلى مكة ، عندما اختفى عتاب بن أُسَيْد الذى أقامه النبى على مكة ، هنا يقوم سهيل بن عمرو خطيباً فيقول : يا معشر قريش ، لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد ، والله إن هذا الدين ليمتد امتداد الشمس والقمر من طلوعهما إلى غروبهما ، فاستمعت له قريش وثبتت على الإسلام ، وواضح أن الرجل قام هذا المقام عن اقتناع وعقل معاً ، فأما الاقتناع فقد رأى بعينه قوة المسلمين يوم حنين ، ثم إن إكرام الرسول إياه ، كان له فى نفسه عميق الأثر ، وأما العقل فلأن مكة كانت مدينة غير حصينة ، ولو ارتدت قريش ومال عليها المسلمون ميلة لأصابوها بقاصمة الظهر . ومع ذلك فقد قلنا : إن سواد قريش وأهل مكة كانوا قد أسلموا وثبتوا على الإسلام .

وهذا الموقف من سهيل بن عمرو كان بداية عودة قريش إلى الصدارة والرياسة فى جماعة الإسلام ، وهذه العودة كانت خيراً على قريش أفراداً وخيراً على الإسلام ، ولكنها كانت نهاية قريش القبيلة كما سنرى .

القرشيون يُخرِجُون الأنصَار مِن الرياسة وَالقيَادة :

تعودنا على أن ننظر إلى ما وقع فى يوم السقيفة على أنه أمر طبيعى ، وأن مبايعة أبى بكر كانت النتيجة المنطقية التى كان ينبغى أن ينتهى إليها الاجتماع مع أن الاجتماع كله.. على الصورة التى وصل بها إلينا تم على نحو هو أشبه بالمصادفة ، فإن الأنصار عندما رأوا أن رسول الله ﷺ قد توفى اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة ، ومعهم كبيرهم سعد بن عبادة للنظر فيما يمكن أن يصير إليه أمرهم ، فالمدينة مدينتهم والبلد بلدهم ، ولهم فيه الغالبية لكنها كانت فى نفس الوقت مركز أمة الإسلام التى شملت الآن شبه الجزيرة كلها ، وكانوا يعيشون فى ظل رسول الله وفى أمان الإسلام ، فماذا يكون

موقفهم اليوم وقد مضى الرسول إلى ربه ؟ هل يتفرق أمر الجماعة فيقرُّوا هم فى مدينتهم ، ويعود القرشيون المهاجرون إليهم إلى مدينتهم مكة ، ويتفرق غيرهم من المهاجرين إلى قبائلهم ومنازلهم ، وينفرط بذلك أمر الأمة مع بقاء الجماعات الداخلة فى تكوينها على الإسلام ؟

وهذا يتجلى لنا من أقدم ما لدينا من أخبار هذا الاجتماع ، فقد رواه ابن سعد بسنده وأتانا به البلاذرى فى أنساب الأشراف . قال ابن سعد : « بينا المهاجرون فى حجرة رسول الله ﷺ وقد قبضه الله إليه وعلى بن أبى طالب والعباس متشاغلان به ، إذ جاء معن بن عدى وعويم بن ساعدة فقالا لأبى بكر : « باب فتنة إنْ لم يغلقه الله بك فلن يُغلق أبداً . هذا سعد بن عبادة الأنصارى فى سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يبايعوه » ، فمضى أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح حتى جاءوا السقيفة ، وإذا سعد على طُنُفُسه متكئاً على وسادة وعليه الحمى فقال له أبو بكر: ما ترى يا أبا ثابت ؟ فقال : أنا رجل منكم . فقال الحباب بن المنذر : منا أمير ومنكم أمير ، فإن عمل المهاجرى شيئاً فى الأنصار رد عليه الأنصارى . وإن عمل الأنصارى شيئاً فى المهاجرين رد عليه المهاجرى ، وأنا جذيلها المحكّك وعُذيقها المرجَّب ، إنْ شئتم فَرَزْنا، فرددناها جذعة ، من ينازعنى ؟ » .

فأراد عمر أن يتكلم فقال له أبو بكر : على رسلك . ثم قال أبو بكر : نحن أول الناس إسلاماً ، وأوسطهم داراً ، وأكرمهم انساباً ، وأمسُّهم برسول الله ﷺ رحماً ، وأنتم إخواننا فى الإسلام وشركاؤنا فى الدين نصرتم وآويتم وآسيتم فجزاكم الله خيراً. فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، ولن تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش ، فقد يعلم ملأ منكم أن رسول الله ﷺ قال : « الأئمة من قريش » فأنتم أحقاء ألا تنفسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم » (البلاذرى : ١/ ٥٨١ - ٥٨٢) .

وهنا يطمئن خاطر الحباب بن المنذر الذى كان الخوف على مصير الأنصار قد استبد به ، وجعله يقول ما قال . فيطامن من غلوائه ويقول : « ما نحسدك ولا أصحابك ، ولكننا نخشى أن يكون الأمر فى أيدى قوم قتلناهم ، فحقدوا علينا » (البلاذرى ١/ ٥٨٢) ويزيده أبو بكر اطمئناناً فيقول : فليس بعد المهاجرين الأُوَل

عندنا أحدٌ بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا تُقْضى دونكم الأمور » .

وتكلم النعمان بن بشير وهو من خيرة الأنصار من بنى الحارث من الخزرج فيكشف عن حقيقة إيمان الأنصار وجميل مذهبهم ، فيقول : « يا معشر الأنصار ، إنَّا والله لئن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين وسابقة فى هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضى ربنا وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا ، فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغى به من الدنيا عرضاً ، فإن الله ولىّ المنة بذلك . إلا أن محمداً ﷺ من قريش وقومه أحق به وأَوْلَى ، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبداً ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم »[1] .

وانتهى اجتماع السقيفة بمبايعة أبى بكر بما يشبه الإجماع ، وانصرف الأنصار وهم يحسبون أن الأمر سيكون على ما قال أبو بكر ، قسمة بين المهاجرين والأنصار ، فالمهاجرون هم الأمراء أى : أصحاب الرياسة ، والأنصار هم الوزراء والشركاء : «لا يُتركون فى مشورة ، ولا تُقْضى دونهم الأمور » .

والذى نلاحظه هو أن الأنصار عندما اجتمعوا إلى سعد بن عبادة لم تكن فكرة رياسة أمة الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ فى أذهانهم ، إنما هم اجتمعوا بدافع الخوف على مصيرهم بعد رسول الله ، وكان محباً لهم كثير الحدب عليهم منصفاً إياهم فى كثير من الحالات التى وقع عليهم فيها اعتداء من المهاجرين ، وخاصة من عمر بن الخطاب ، الذى كانت تبدر منه بدرات تدل على تحامل على بعض كبار الأنصار ، وخاصة سعد بن عبادة وابنه قيس . وقد كان عمر حريصاً أشد الحرص على أن يكون هو وأبو بكر وأبو عبيدة أقرب الناس إلى رسول الله ولم يقتصر موقفه هذا على الأنصار بل شمل كل من كان يخشى تقدمهم عليه من غير الأنصار من أمثال : على بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة .

ومن هنا ، فإننا نرى أن عمر وأبا بكر عندما قصدا السقيفة قصداها وفى ذهنهما تصميم على أن تكون لهما السيطرة على مصائر الأمة بعد وفاة الرسول . والنصوص

---

(١) الطبرى : تاريخ ٣/ ٢٢١ .

تقول : إن عمر عندما كان يسرع إلى السقيفة كان يُزوِّر كلاماً يقوله أى يرتب فى نفسه كلاماً يقوله ، وعندما تكلم أبو بكر رضى عمر لأن أبا بكر قال بأسلوبه الذكى الإنسانى ما كان يمكن أن يقوله هو بطريقة أخرى ، وخلاصة ما قاله هذا وما كان يريد أن يقوله ذاك أن السيادة فى الأمة ينبغى أن تبقى فى يد القرشيين .

أما الزعم بأن رسول الله ﷺ قال إن الإمامة فى قريش فغير صحيح[1] ، ولا يمكن أن يكون أبو بكر قد قال هذا القول فهو رجل صادق بل صدِّيق ، ولكنها وُضِعت فيما بعد لتأكيد ما كانت قريش تتمسك به من السلطة فى أمة الإسلام وكان ذلك من خير الإسلام ولكنه فى النهاية لم يكن من خير قريش . فإن القرشيين كانت فيهم ملكات سياسة وقيادة ، وقد نفعوا أمة الإسلام بذلك ولكنهم استهلكوا أنفسهم ودفعوا بأنفسهم فى منازعات وحروب مهلكة انتهت آخر الأمر بضياع معظم قريش وبزوال فروعها التى ظلت فى ميدان السياسة ، لم يبق من قريش فى النهاية إلا بيت على بن أبى طالب ، وهو قسم من الهاشميين .

وقد انفض اجتماع السقيفة على أن يكون الأنصار شركاء القرشيين فى تسيير أمور الأمة ، فالقرشيون أمراء ، والأنصار وزراء ، ولا يُفتاتون بمشورة ، ولا تُقضى دونهم الأمور .

ولكن الذى حدث بعد ذلك هو أن الأنصار أُسقِطوا من الحساب إسقاطاً لا يمكن إلا أن يكون مقصوداً ، فقد بعث أبو بكر أحد عشر قائداً للقضاء على حركة الردة وليس بينهم من الأنصار واحد ، ثم أرسل أربعة جيوش إلى الشام لم يوضع على رأس واحد منها أنصارى ، وبدلاً من أن تكون قيادة الدولة شورية جماعية كما كانت أيام الرسول ﷺ أصبحت فى الحقيقة وواقع الأمر فردية ، وأبو بكر وعمر سارا على قاعدة الشورى ، وفى أيام عثمان انتهت فعلاً الشورى وتمهد الطريق لملك معاوية والأمويين .

---

(١) حديث « الأئمة من قريش » حديث أخرجه الحاكم فى مستدركه والبيهقى فى سننه ، وقد جمع ابن حجر طرقه عن ٤٠ صحابياً ، فالحديث صحيح ، ورميه الحديث بالوضع يدخل فى نفس النطاق وهو التأصيل الدينى للأحداث السياسية . [المراجع] .

وقد تنبه إلى هذه الحقيقة واحد من أهل الرعيل الأول من المؤرخين ، وهو أحمد بن أبى يعقوب بن واضح اليعقوبى فأتانا بأخبار سكت عنها غيره ، فقال : إن الأنصار غضبوا لبيتين من الشعر استشهد بهما أبو بكر ، قال :

« فاعتزلت الأنصار عن أبى بكر ، فغضبت قريش وأحفظها ذلك فتكلم خطباؤها ، وقدم عمرو بن العاص فقالت له قريش : قم فتكلم بكلام تنال فيه من الأنصار ، ففعل ، فقام الفضل بن العباس فردَّ عليهم ، ثم صار إلى على فأخبره وأنشده شعراً قاله ، فخرج على مغضباً حتى دخل المسجد ، فذكر الأنصار بخير ، وردَّ على عمرو بن العاص قوله ، فلما علمت الأنصار ذلك سرَّها وقالت : ما نبالى بقول من قال مع حُسن قول على ، واجتمعت إلى حسان بن ثابت ، فقالوا : أجب الفضل . فقال : إن عارضتُه بقوافيه فضحنى ، فقالوا : فاذكر علياً فقط فقال :

جَـزَى اللهُ خيراً - والجَـزَاء بكـفِّه أبـا حَسـنٍ عَنَّـا ومَـنْ كأبِـى حَسَـن
سَبـقتَ قريشـاً بالـذى أنـتَ أهلُـهُ فَصَـدْرُكَ مشـروح ، وقلبُـكَ ممتحَـن
تمنَّتْ رجَـالٌ مـن قُـريشٍ أعـزة مكانكَ . هيهاتَ الهزَالُ من السِّمَن [1]

وفى خبر آخر عند اليعقوبى أيضاً نقرأ أنه عندما عهد أبو بكر إلى خالد بن الوليد وغيره من غير الأنصار فى قيادة الجيوش التى خرجت لحروب المرتدين : « قام ثابت ابن قيس بن ثابت بن شماس فقال : يا معشر قريش ، أما كان فينا رجل يصلح لما تصلحون له ؟ أما ذلك والله ما نحن عمياً عما نرى ، ولا صماً عما نسمع ، ولكن أمرنا رسول الله بالصبر ، فنحن نصبر ، وقام حسان فقال :

يَا للرجَـالِ لخلفَـة الأطْـوارِ وَلِمَـا أرادَ القَـومُ بالأنْصَـار
لم يُدخِلُـوا منَّا رئيساً وَاحِـداً يا صَاحِ فى تقصى ولا أمرار

فعظم على أبى بكر هذا القول ، فجعل على الأنصار ثابت بن قيس ، وأنفذ خالداً على المهاجرين [2] وثابت بن قيس الشماس كان من رؤوس الأنصار فهو من بنى

(١) اليعقوبى ، تاريخ ٢/ ١٢٨ .
(٢) اليعقوبى ، تاريخ ٢/ ١٢٩ .

كعب من الخزرج ، وقد استشهد مع من استشهد فى يوم اليمامة ، يقول ابن حزم فى الجمهرة : إنه ممن شُهِد لهم بالجنة [1] .

وجدير بالملاحظة أن الأنصار نَفَسَ بعضهم على بعض عقب وفاة الرسول ﷺ فكَرِه الكثيرون من الأوسيين أن يترأس واحد من الخزرج ، وانضم أُسيد بن الحضير إلى أبى بكر ، أما بشير بن سعد الذى أيّد رياسة القرشيين فكان أول من بايع أبا بكر من الأنصار والسبب معروف فهو والد أم خارجة التى تزوجها أبو بكر ، وهى من بنى حارثة الخزرجيين ، وكان أبو بكر قد نزل فى منازلهم بالسُّنُح .

المهم أن الأنصار أُخْرِجوا من قيادة الأمة وانحصر الأمر فى قريش ، وهم عندما غضبوا لذلك تجمعوا حول على بن أبى طالب وكان أول الأمر معارضاً لخلافة أبى بكر ثم بايعه بعد ذلك ، وليس لدينا ما يدل على أن العلاقة كانت ودية بينه وبين عمر، وموقف عمر من الأنصار ورأسهم سعد بن عبادة معروف وهذا التعاطف بين على وآله والأنصار استمر يَقْوَى مع الزمن حتى أصبحت المدينة معقل العلويين ثم تبعتها مكة عندما غادرها رؤوس القرشيين - من غير بنى هاشم - لتولى القيادة وشيئاً فشيئاً أصبح الحجاز كله هاشمى الميول معارضاً لبنى أمية ثم لبنى العباس وفروع قريش الحاكمة بنو أمية أولاً ثم بنو العباس - أصبحت تنظر إلى الحجاز - خاصة مكة والمدينة - نظرتها إلى إقليم مُعَادٍ لهم مؤيد لخصومهم .

وإذا كان الأمويون قد رموا مكة بحجارة المنجنيق وأسهم النار حتى اشتعلت أستار الكعبة ، فإن الذى فعله بهم العباس كان أشد ، وإنه لمن عجائب تصاريف التاريخ أن قريشاً التى بدأ نجمها يصعد بفضل مكة أصبحت تكرهها وتهاجمها . والأنصار أحباء رسول الله انهزموا فى الصراع السياسى داخل أمة الإسلام فجعلوا يهاجرون إلى الأمصار ، وهناك لقوا من الكرامة وحب الناس ما لم يكونوا يجدونه فى وطنهم والمسئولية فى ذلك ترجع إلى هذا النهم إلى السلطان الذى استبد بقلوب غالبية القرشيين ، وقريش فى تشبثها بالسلطان قضت فى النهاية على قريش .

---

(١) الجمهرة : ٣٣٦ .

أبو بكر يَستدعى رؤساء مَكّة وَيسند إليهم الرياسَات :

لا يحب أهل التُّقَى من المسلمين الخوض فى حديث سقيفة بنى ساعدة وما جرى فيها ، وحسناً يفعلون فإن الذى حدث وما قيل يوم السقيفة حدث فى ظرف عصيب لا يُستبعد معه أن تصدر عن أحد من الناس بادرة يدفع إليها الدَّهَش أو الفزع أو عدم استيعاب الموقف . ثم إن رواة الأخبار عن هذا اليوم العصيب وأهمهم هنا سيف بن عمر وأبو مخنف ، لا يطمئن الخاطر إلى كل ما يقولون ، والذى يهمنا ونحمد الله عليه أن الأمر انتهى إلى أبى بكر ، وأبو بكر رزقه الله من إيمان دونه رواسى الجبال وجنان ثابت لا تنال منه الخطوب ، ثم خلق كريم جميل ومنطق بليغ يتنزل على القلوب وبهذا جمع الأمة إلى لوائه ورأب الصدع ووحَّد الصفوف ، فاندرج حديث السقيفة وأصبح ذكرى ، والذكرى تنفع المؤمنين .

ولكننا ونحن الآن بصدد التأريخ لقريش والإسلام لا نملك إلا أن نقول من واقع ما حدث : إن قريشاً انتفعت بما وقع فى السقيفة من حيث لا تحتسب ، حقاً إن أبا بكر لم يتصرف قط على أنه قرشى ، وإنما تصرف دائماً على أنه خليفة رسول الله ولزم غَرْز رسول الله وطريقه وما حدث لم يكن من صنعه وإنما هى طبيعة القرشيين وما جُبِلوا عليه من حب السيادة والرياسة ، وما انفردوا به من معرفة بشئون الحياة وسياسة الناس ، ربما نتيجة لاشتغالهم بالتجارة ، ونحن نعرف أن رسول الله ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى .

وقد بدأت بوادر الفتنة فى جزيرة العرب ، فقد كان ذو الخمار عيهلة بن كعب المشهور باسم الأسود العنسى قد ظهر فى قبيلة مذحج وانضمت إليه نجران فى اليمن، وتحرك طليحة بن خويلد الأسدى فى طيىء وأسد ومن لَفَّ لَفَّهم وقدموا فى جمعهم حتى بلغوا الربذة فى أحواز المدينة ، وأعانهم على ذلك أن منازل عبس وذبيان كانت تقع فى هذه المنطقة من عوالى نجد أى مداخلها ، ويصف لنا الطبرى الموقف فى عبارة موجزة عن السرى الوالبى وسيف بن عمر وهما من إسنادهما أكبر رواته عن هذه الأحداث فيقول :

١ - مات رسول الله ﷺ واجتمعت أسد وغطفان وطىء على طليحة بن خويلد الأسدى إلا من خواص أقوام فى القبائل الثلاث .

٢ - فاجتمعت أسد بشُحَيْراء فى عوالى نجد ، وفزارة ومن يليهم من غطفان بجنوب طيبة (المدينة) .

٣ - وطىء على حدود أرضهم بجبلى طىء ، وهما الجزء الشمالى مما يُعرف اليوم بجبل (شمر) .

٤ - واجتمعت ثعلبة بن سعد ومن يليهم من مرة وعبس بالأبرق من الربذة (جنوب شرقى المدينة) .

٥ - وتأشَّب إليهم ناس من كنانة .

٦ - فلم تحملهم البلاد وافترقوا فرقتين ، فأقامت فرق منهم بالأبرق وسارت الأخرى إلى ذى القصة (على نحو ستين كيلو مترًا شمال شرقى المدينة) .

٧ - فأمدهم طليحة بِحِبَال ، فكان حِبَالٌ على أهل ذى القَصَّةِ من بنى أسد ومن تأشَّب من ليث والدِّيل ومدلج .

٨ - وكان على مرة بالأبرق عوف بن فلان بن سنان .

٩ - وعلى ثعلبة وعبس الحارث بن فلان ، أحد بنى سَبِيع .

١٠ - وقد بعثوا وفوداً فقدموا المدينة ، فنزلوا على وجوه الناس فأنزلوهم ما خلا عياشاً (حرصاً على ماله ؟) فتحملوا بهم على أبى بكر على أن يقيموا الصلاة وعلى أن يؤتوا الزكاة فعزم الله لأبى بكر على الحق ، وقال : لو منعونى عقالاً لجالدتهم عليه وكانت عُقل الصدقة مع الصدقة (أى : أنه لا يتنازل حتى عن الحبل التى تُربط به إبل الصدقة ، وقد يكون المراد الإبل نفسها) .

١١ - فردَّهم ، فرجع وفد من بلى المدينة من المرتدة إليهم فأخبروا عشائرهم بقلة أهل المدينة ... »[1] .

وإنما أتيت بهذه العبارة على طولها لكى أبين للقارىء أن نطاق هذه الثورة (فيما عدا الأسود العنسى) كان حوالى نجد ابتداء من جبل شمر ويتصل القوس فيسير

(١) الطبرى ، تاريخ ٣/ ٢٤٤ - ٢٤٥ .

جنوبى المدينة حتى يصل بلاد ليث من كنانة ومدلج قرب ساحل البحر الأحمر .

وحدث ذلك كله وأسامة بن زيد وجيشه فى سريتهم إلى البلقاء جنوبى الشام فى صميم بلاد نصارى العرب .

والدارس لسيرة الرسول ﷺ يتبين أن هذه المناطق بالذات - وهى مناطق أعاريب نجد وأعراب الحجاز كانت دائماً مناطق قلق واضطراب على الإسلام وأهله. ونحو ثلث الغزوات والسرايا كان موجهاً إليها . هنا كانت قبائل كبار الأعراب من أسد وغطفان ومحارب والدِّيل وعَضَل والقارة من أهداب قيس عيلان والفروع الفقيرة من مضر بحكم فقر المواطن ، وهؤلاء هم الذين دعا رسول الله ﷺ عندما قال: اللهم على مُضَر ، والمراد أعاريب مضر من أبناء قيس عيلان ، أما عرب مضر فهم أبناء إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وهم فرع مضر الذى انحدرت منه كنانة وقريش ، وهؤلاء الأعاريب كلهم كانوا عالة على خيبر وفدك وتيماء والمدينة ومكة ، وعندما قامت أمة المدينة اتجهوا بمطالعهم نحوها . فهذا مركز مدنى عظيم قام غربى بلادهم واتسع حتى دخلت فيه خيبر ونطاق الواحات شمالى الحجاز .

وطوال الفترة المدنية من العصر النبوى عرف أهل المدينة بهدى محمد ﷺ وقيادته كيف يسوسون هؤلاء الأعراب ، ومعظم كبار المغازى والسرايا التى اتجهت إلى هذه النواحى قادها رجال المدينة ممن تربَّوا فى مدرسة محمد صلوات الله عليه التى قامت على الاتحاد والنظام والطاعة والصدق فى القتال ، هنا كانت مجالات أعاظم قواد الأنصار : سعد بن عبادة ، وأسيد بن الحضير ، والحباب بن المنذر بن الجموح ، وعبَّاد ابن بشر ، ومحمد بن مسلمة ، وأبو قتادة بن ربعى ، وسلمة بن الأكوع .

وكان من المنتظر أن يكون هؤلاء بالذات قادة الجيوش التى تذهب إلى هذه النواحى ، فقد داستها خيولهم ودوَّختها ، وكان لقادتهم فيها هيبة ، وفى قلوب أهلها خشية ، فكيف لا نجد فى قيادة الجيوش ، التى وُجِّهت لحرب أهل الردة واحداً من هؤلاء ؟

وعندما اقتربت جموع الأعراب من المدينة وأصبحت على أميال منها ، تحرك

أبو بكر بعد أن شدد فى حراسة المدينة خوف البيات : فعبَّى الناس ثم خرج على تعبيته من أعجاز ليلته يمشى ، وعلى ميمنته النعمان بن مُقرَّن ، وعلى ميسرته عبد الله بن مقرن وعلى الساقة سويد بن مقرن معه الركاب ، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو فى صعيد واحد ، فما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً حتى وضعوا فيهم السيوف ، فاقتتلوا أعجاز ليلتهم ، فما ذَرّ قَرن الشمس حتى ولوهم الأدبار »[1] .

فأما أسلوب القتال ونظامه وطريقته فى مباغتة الأعداء فتلك كلها دروس تعلمها أهل المدينة أيام رسول الله ﷺ ولكن أين القواد ؟ وكيف نجد على القيادة بنى مقرن هؤلاء ؟ لقد كانوا من قدماء أهل الإسلام وهم مُزَنيون ، ولكن أحداً منهم لم يَلِ للرسول جيشاً وكيف يظل إجلاء قادة الأنصار وبعضهم كانوا فعلاً من أصحاب المواهب العسكرية النادرة ، مثل : محمد بن مسلمة ، والحباب بن المنذر ، وعباد بن بشر ، وبشير بن سعد ، وأسيد بن الحضير بعيداً عن القيادة ؟ هؤلاء لم يكونوا قط فى جيش أسامة بن زيد فلا ذِكْر لهم فيه وإنما كانوا فى المدينة . أما غيابهم عن القيادات فهو - استنتاجاً - صدى لما حدث فى السقيفة ، وتلك بداية قصة طويلة تحتاج إلى من يؤرخ لها ، قصة الأنصار بعد رسول الله ﷺ .

ثم يعبىء أبو بكر جيوش حرب الردة وهى أحد عشر جيشاً لا نجد فى قيادة أحدها أنصارياً واحداً ؛ بل نجد فيهم من القرشيين : خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل ، وعمرو بن العاص ، وخالد بن سعيد ، والعلاء الحضرمى . وعندما تنحى الأنصار أو نُحُّوا عن القيادات كانت تلك هى الفرصة التى أتيحت لقريش لكى يتولى رجالها القيادات .

وقد كان أبو بكر قد قال للأنصار فى خطابه الذى حسم به الموقف والنزاع يوم السقيفة : « وأنتم يا معشر الأنصار من لا يُنْكَرُ فضلهم فى الدين ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام . رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس من المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تُفتاتون بمشورة ، ولا تُقضى دونكم الأمور »[2] .

---

(١) الطبرى ، تاريخ ٣/ ٢٤٦ .
(٢) الطبرى ، تاريخ : ٣/ ٢٢٠ رواية أبى مخنف .

وهذا العهد لا ينقضه ما بدر عن سعد بن عبادة والحباب بن المنذر ، لأن كلام أبى بكر هذا كان بعد الاتفاق والتراضى ، ثم إن نفراً من الأنصار كانوا أول من دعوا إلى بيعة أبى بكر وأيَّدوها يوم السقيفة وعلى رأسهم بشير بن سعد ، وأسيد بن الحضير وبقية الأنصار بايعوا دون اعتراض .

فلننظر كيف تم تطبيق ما قاله أبو بكر من أن الأنصار لا يُفتاتون بمشورة ولا تُقضى دونهم الأمور . لدينا هنا نصان انفرد بهما رجل من جملة المؤرخين الأُوَل الذين لم يلقوا من المؤرخين إلى اليوم ما هم جديرون به من تقدير ، ذلك هو محمد بن عبد الله الأزدى المتوفى سنة ٢٣١هـ/ ٨٤٥ - ٨٤٦ م صاحب كتاب « فتوح الشام » وهو كتاب لم يتنبه إلى أهميته إلا القليلون ، لأنه نشر من نحو مائة وثلاثين سنة (١٨٤٥م) فى الهند نشرة ناقصة حافلة بالأخطاء على يد مستشرق يسمى وليم تاسوليس ، ثم أُعيد نشره فى القاهرة على مخطوطة جيدة بعناية دار سجل العرب سنة ١٩٧٠ ، وعليها اعتمد البحاثة المحقق أحمد عادل كمال فى كتابه القيم عن فتوح الشام [1] ، والأزدى مؤرخ فقط يميل بعض الميل إلى تعظيم شأن قومه الأزد ولكنه معتدل منصف فى جملته، ثم إن الموضوع الذى نحن بصدده بعيد عن الأزد كل البعد ، ومن ثم فإننا نعتبر روايته عن فتوح الشام وبداية الفتوح بوجه عام - وثيقة تكمل ما كتبه الطبرى والبلاذرى وغيرهما عن الفتوح .

وقبل أن نورد نص الأزدى الذى رد على سؤال طالما حيَّر أذهان الباحثين وهو : كيف عادت قريش إلى ولاية معظم الأمر فى تاريخ الإسلام ، بُعيد وفاة الرسول صلوات الله عليه بعد أن كانت هى بالذات قد رصدت نفسها للقضاء على الإسلام ؟ نقول : إن الرسول وكبار صحابته من المهاجرين كانوا قرشيين . ولكنه ﷺ سار فى توجيه أمور الأمة مساراً إسلامياً خالصاً ، لا فضل فيه إلا للإسلام والتقوى والإخلاص يستوى فى هذا القرشى وغير القرشى ، والعربى وغير العربى وجماعة النابهين من أصحاب الرأى والشفوف من الصحابة كانت تضم من الأنصار أكثر مما

(١) عنوانه : الطريق إلى دمشق (دار النفائس) وهو أحسن ما لدينا عن فتوح هذا البلد العزيز ، والأستاذ أحمد عادل كمال مؤرخ محقق ، وهو من أعاظم مؤرخى الفتوح الإسلامية فى عصرنا .

ضمت من المهاجرين، وكان فيها من غفار وأسلم وجهينة وليث وخزاعة نفر يعتز بهم تاريخ الإسلام .

وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى صارت الخلافة إلى أبى بكر لا لأنه قرشى بل لأنه كان أولى المسلمين إذ ذاك بمواصلة عمل الرسول ، ولم تكن معارضة بعض الأنصار إلا خوفاً من الضياع فى بحر العرب والإسلام الذى كان يتسع يوماً بعد يوم، وقد رأينا أن المعارضين من الأنصار اطمأنوا وسلَّموا عندما قال لهم أبو بكر إنهم يلون المهاجرين الأولين دون غيرهم من أهل الإسلام وأنهم الوزراء لا يُفتاتون بمشورة ولا تُقضى دونهم الأمور .

ولابد قبل أن نورد نص عبد الله الأزدى من بعض الملاحظات . لاحظنا أن الأمور لم تكد تستتب لأبى بكر حتى يختفى الأنصار من القيادات أو يكادون وجيوش حروب الردة كانت أحد عشر جيشاً لم يَقُدْ واحداً منها أنصارى ، بل قفز القرشيون فأصابوا منها خمس قيادات على الأقل . حقاً كان فى جيش خالد الذى توجه إلى بنى أسد وصاحبهم طليحة بن خويلد الأسدى ما بين أربعمائة وخمسمائة من الأنصار ، أميرهم ثابت بن قيس ويحمل رايتهم أبو لبابة بن عبد المنذر وهما صحابيان جليلان ، ولكن لم تسبق لأحد منهما قيادة سرية أو بعث ، ولابد أن الكتلة المقاتلة فى كل من الجيوش الأحد عشر كانت من الأنصار فقد كانوا إلى الآن صخرة الإسلام التى تتحطم عندها الأمواج ، ولكننا نجد فطاحلهم بعيدين عن القيادات .

هنا نورد نص الأزدى الذى يقدم تفاصيل مجلس عقده أبو بكر مع كبار أصحابه وأهل شوراه لكى يتخذ قراراً فى شأن مواصلة الفتوح خارج الجزيرة العربية وهى خطة حاسمة وخطيرة ، ولم يكن أبو بكر يستطيع أن يتخذ فيها قراراً دون مشورة طويلة . وخبر هذا المجلس يقول صراحة إن أبا بكر دعا إلى المجلس كبار أصحاب شوراه ، وهم كما يذكرهم الأزدى : عمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف وسعد بن أبى وقاص وأبو عبيدة عامر بن الجراح وعبد الله بن أبى أوفى الخزاعى « ووجوه المهاجرين والأنصار الذين شهدوا بدراً فاجتمعوا إليه ، وعبد الله ابن أبى أوفى الخزاعى هذا صحابى معروف ، اسمه كما يقول ابن حزم علقمة بن

خالد بن الحارث بن أسيد ، له صحبة آخر الصحابة موتاً بالكوفة »[1]. وهو راوى هذا الخبر وهو مُصدَّق فيه لأنه حضره بنفسه .

وأغلب الظن أنه حضر هذا المجلس لأنه خزاعى من أسلم ، وكانت أسلم ركناً هاماً من أركان جماعة الإسلام إذ ذاك حتى ليقال إن ثلث المسلمين الذين خرجوا لغزوة الحديبية كانوا من أسلم ، ويلاحظ أن أحداً من كبار الأنصار لم يُذكر بالاسم بين أهل الشورى هؤلاء إلا عبد الله بن أبى أوفى الخزاعى ، وقد تكلم فى هذا المجلس أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ، وأيَّدوا فكرة الغزو إلى الشام ، ثم تكلم طلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وأبو عبيدة بن الجراح وسعيد بن زيد بن نفيل ، ولم يتكلم علىٌّ إلا بعد أن لاحظ أبو بكر سكوته ودعاه إلى الكلام فتكلم مؤيِّداً . ولكن أحداً من كبار الأنصار لم يتكلم وقد جرت عادتهم فى مثل هذه المجالس أيام رسول الله أن يتكلموا ، والحباب بن المنذر بالذات كانت له كلمة فى كل مناسبة من مناسبات الحروب ، لأنه كان موهوباً فى الأمور العسكرية . ولم نسمع هنا عن محمد بن مسلمة وكان معظم الوقت على حرس رسول الله ، وبشير بن سعد وله دور فى كل غزاة من غزوات الرسول ، وهو ومحمد بن مسلمة قادا البعوث والسرايا ، فأين هما اليوم ؟

واقع الأمر يدل على أنهم لم يحضروا هذا الاجتماع ولم يُسمع لهم رأى ، وحتى أُسيد ابن الحضير وكان سيد الأوس وقد مال يوم السقيفة إلى أبى بكر دون سعد بن عبادة وكان حرياً أن يكون فى هذا المجلس . ولو حضر واحد من هؤلاء لما فات الأزدى أن يذكره فإنهم عُمُد الأنصار ، والأنصار كانوا إلى يوم السقيفة صخرةَ جيوش الإسلام . ويوم حنين يوم هرب القرشيون المكيون مع بنى سليم عند الصدمة الأولى مع هوازن كانت دعوة رسول الله إلى الأنصار دون غيرهم ، فما أن سمعوا صوته حتى ثابوا إلى رشدهم وعادوا إلى رسول الله (ﷺ) فصدموا هوازن صدمة دامية فتحطمت قواها

---

(١) ابن الأثير ، أُسد الغابة : ٣/ ١٨٢ ، وهو يذكر هنا أن عبد الله بن أبى أوفى أقام فى المدينة حتى توفى رسول الله ﷺ فتحول إلى الكوفة ، وهذا غير معقول ، لأن الكوفة لم تكن قد أنشئت عند وفاة النبى . والأصح أن يقال : إنه توجه إلى الكوفة بعد تأسيسها .

وتم للإسلام نصر كامل ، فلم يفقد المسلمون فى هذه المعركة إلا أربعة نفر رغم الفرار الأول ، فكيف لا يوجد أولئك الأبطال اليوم وكيف يُغيَّبون ؟ فلا يكون لهم رأى ، ولا تكون لهم قيادة جيش واحد ، لا من جيوش الردة ، ولا من جيوش فتوح الشام ؟

ولم يأسف أبو بكر على غياب الأنصار ولا أسف عمر ، ولم يبلغنا فيما بين أيدينا من الأخبار أن أبا بكر حاول استرضاء الأنصار . ولم يَسْعَ الأنصار من ناحيتهم إلى استرضاء أبى بكر وبقية المهاجرين ، بل انصرفوا للجهاد دون أن تكون لهم قيادة من القيادات الكبيرة ، فخرج من أراد الخروج منهم فى جيوش حروب الردة ، ومات الكثيرون جداً منهم فى هذه الحروب ، وخاصة فى حرب مسيلمة الكذاب فى معارك اليمامة ، وكانت من أشد المعارك التى خاضها المسلمون ، لأن مسيلمة وأصحابه تحصنوا فى وادٍ ضيق داخل حديقة أى بستان له سور عالٍ ، وكان كبار الأنصار هم الذين اقتحموا ذلك الحصن المنيع ، ومات منهم فى تلك المعركة الشديدة نفر عظيم ، ومات بعضهم فى حروب الشام ، وبعضهم فى فتوح العراق .

ويبدو أنهم وقد خُذِلوا فى المعركة السياسية تماسك بعضهم ببعض وقد اتعظوا بما أصابهم يوم السقيفة نتيجة الاختلاف فيما بينهم ، فأصبحوا يخرجون فى حروب الردة جماعات متميزة بنفسها تطلب الشهادة ، ولدينا عن ذلك أخبار كثيرة تؤيد هذا الموقف ، نذكر منها خبر عباد بن بشر ، وكان من كبار بنى عبد الأشهل من الأوس ، فهذا الرجل حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان من أحب الناس إلى رسول الله وفى يوم السقيفة كان معتدلاً عاقلاً ، وهو الذى تكلم بعد سعد بن عبادة والحباب ابن المنذر وأبى بكر وأبى عبيدة فسأل قومه أن يتركوا الرياسة للمهاجرين ، فهم قوم النبى ﷺ وأحق بالأمر بعده وكان حقيقاً لهذا بأن يعرف له أبو بكر وعمر هذا الفضل ، وأن يعهدا إليه فى شىء من القيادات ، أو أن يجعلوه من أهل شوراهما ، فلم يحدث ذلك ، فانظر إلى هذا الرجل يوم اليمامة ، وقد اشتاقت نفسه إلى الشهادة حتى رأى فى نومه رؤيا مبشرة بذلك .

قال أبو سعيد الخدرى - وقد شهد اليمامة - فى خبر رواه حفيده لمحمد بن واقد وهو الواقدى ورواه كاتبه محمد بن سعد فى الطبقات قال : « فأنظر إليه يوم اليمامة

وإنه ليصيح بالأنصار : احْطموا جفون السيوف وتميزوا من الناس ! وجعل يقول : اخلصونا ، اخلصونا ! فأُخْلَصوا : أربعمائة رجل من الأنصار ما يخالطهم أحد يقدمهم عباد بن بشر وأبو دجانة والبراء بن مالك ، حتى انتهينا إلى باب الحديقة فقاتلوا أشد القتال ، وقُتِل عباد بن بشر رحمه الله ، فرأيت بوجهه ضرباً كثيراً ، ما عرفته إلا بعلامة كانت فى جسده » (١) .

ومن الأنصار من نجا من الموت فى حروب الردة واشترك فى الفتوح ثم فوجىء بفتنة عثمان فقرروا اعتزال الحياة السياسية جملة ، ومن هؤلاء محمد بن مسلمة فارس رسول الله وقائد حرسه وطليعة جيشه فى أكثر من مناسبة ، فهذا الفارس العظيم لم يحفل لاستبعاده من أهل شورى أبى بكر ومضى يجاهد حتى كانت الفتنة ، فاعتزل فى البيداء قريباً من المدينة ، وقد روى خبر اعتزاله ابن سعد عن ابن حصين الثعلبى عن ابن حذيفة بن اليمان وكان حذيفة صاحبه ومن المعتزلين معه ، قال : فخرجتُ فيمن خرج من الناس (من المدينة) فأتيت أهل ماء ، فإذا أنا بفسطاط مضروب مُتَنَحَّى تضربه الرياح ، فقلت : لمن هذا الفسطاط ؟ قالوا : لمحمد بن مسلمة ، فأتيته فإذا هو شيخ ، فقلت له : يرحمك الله ، أراك رجلاً من خيار المسلمين ، تركتَ بلدك ودارك وأهلك وجيرانك ، قال : تركته كراهية الشر ، ما فى نفسى أن تشتمل علىَّ مصر من أمصارهم حتى تنجلى عما انجلت . وظل فى معتزله هذا حتى مات ، ويُروى عنه حديث يقول : إن رسول الله ﷺ أعطاه سيفاً وقال له : « إذا رأيتَ من المسلمين فئتين تقتتلان فاضرب به الحجر حتى تكسره ، ثم كُفَّ لسانك ويدك حتى تأتيك منية قاضية ، أو يد خاطئة ، فلما قُتِل عثمان ، وكان من أمر الناس ما كان ، خرج إلى صخرة فى فنائه فضرب الصخرة بسيفه حتى كسره » (٢) .

وقد حاول أبو بكر استرضاء بعض كبارهم ببعض صغار الأعمال دون كبارها فرفضوا ، ويصور لنا هذا الموقف أبو الهيثم بن التيهان ، وهو من طلائع المسلمين فى المدينة ، فهو من النفر الثمانية الذين أسلموا على يد الرسول قبل العقبة الأولى ، كان فى حياته كلها من أقرب صحابة رسول الله إليه ، وقد حضر معه المشاهد كلها ، « وبعثه

(١) ابن سعد ، الطبقات ، جـ٣ ، القسم الثانى ص١٧ .
(٢) ابن سعد ، الطبقات : جـ٣ قسم ٢ ص٢٠ .

رسول الله ﷺ إلى خيبر خارصاً (أى : جامعاً لضريبة التمر والحبوب التى قررها الرسول ﷺ على أهل خيبر بعد استسلامهم) فلما توفى رسول الله عليه السلام بعثه أبو بكر (كذا والأصح بعث إليه) فأبى ، فقال : قد خَرَصتُ لرسول الله ، فقال : إنى كنت إذا خرصت لرسول الله فرجعت دعا الله لى ، قال : فتركه »[1] وفى هذه العبارة ما فيها .

ومن مظاهر أسف الأنصار على ما حدث فى السقيفة وما بعدها ، زهدهم فى الدنيا وإنفاقهم ماهم فى سبيل الله ، وقد طالما قرأنا عن المال الكثير الذى تحصَّل لعبد الرحمن ابن عوف وطلحة بن عبيد الله وغيرهم من المهاجرين من أموال المغانم والفيوء والأرزاق التى قُدِّرت لهم من بيت المال على أساس القاعدة العمرية وهى قاعدة السبق إلى الإسلام ، والمكان من رسول الله ﷺ . ففاز المهاجرون الأولون وأمهات المؤمنين بأنصبة كبيرة جداً ، وصغرت نتيجة لذلك بقية أنصبة الأنصار لأنهم أسلموا متأخرين عن هؤلاء ، ولم يشفع لهم فى ذلك ما كان من فضلهم العظيم على الإسلام وأهله ، فاقرأ كيف توفى أسيد بن الحضير فارس بنى عبد الأشهل الأوسيين الذى تفيض السيرة النبوية بذكر أعماله وبذله فى سبيل الإسلام ، بل كان هذا الرجل ذا فضل عظيم على أبى بكر ، فهو رأس الأنصار الذين قرروا تأييد أبى بكر يوم السقيفة وحسموا بإخلاصهم للإسلام الموقف لصالح المهاجرين :

« هلك أسيد بن الحضير وعليه أربعة آلاف درهم ديناً ، وكان ماله يغل كل عام ألفاً فأرادوا بيعه ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فبعث إلى غرمائه ، فقال : هل لكم أن تقبضوا كل عام ألفاً فتستوفونه فى أربع سنين ؟ قالوا : نعم يا أمير المؤمنين فأخروا ذلك فكانوا يقبضون فى كل عام ألفاً» وكانت وفاة أسيد فى شعبان سنة ٢٠هـ ، والفتوح فى عنفوانها وناس كثيرون من المهاجرين ممن يجيئون بعد أسيد بن الحضير بمراحل يتولون القيادات بل الولايات ويرتعون فى الأموال والسلطان ، أما أسيد بن الحضير الذى قال فيه الرسول ﷺ : « نِعْمَ الرجل أسيد بن الحضير » فيموت مديناً دون أن تُسند إليه قيادة واحدة .

---

(١) نفس المصدر ص٢٢ .

وكان الفقر وقلة المال نصيب الكثيرين من أكابر الأنصار رغم ما أصابوا من المغانم أيام رسول الله ﷺ . ومن الأمثلة البارزة فى ذلك سهل بن حنيف صاحب الموقف المشهور يوم أُحُد ، وقد حضر هذا الرجل المشاهد كلها مع رسول الله ، ولكن الرسول ﷺ استثناه يوم قسم غنائم بنى قريظة ، هو وأبو دجانة سماك بن خرشة فأعطاهما مع من أعطى من المهاجرين لأنهما كانا فقيرين [١] كما يقول ابن سعد ، ولم يجد سهل بن حنيف إنصافاً إلا فى خلافة على بن أبى طالب ، فأكرمه ورفع مقداره ، وكان سهل من كبار أصحابه ، وقد توفى فى صفين سنة ٣٨هـ ، وصلى عليه على ودُفِن فى الرحبة وكبَّر على عليه ستَّ تكبيرات لأنه بدرى [٢] .

ولن نشير هنا إلى موقف عمر من سعد بن عبادة سيد الخزرج يوم السقيفة ، فهذا الموقف معروف وهو معقول إلى حد ما بعد موقفه يوم السقيفة ولكنه لا يستحق ما لقى من المهانة على يد عمر ، بل كان هناك اتجاه إلى استعمال القوة معه لإرغامه على المبايعة لأبى بكر لولا تدخل بشير بن سعد ، ووصل به الأمر فى أول خلافة عمر إلى حد نفهم منه أنه أُخرج طريداً من المدينة إلى الشام ، حيث مات فى حوران على صورة أليمة ، فيما يرويه البلاذرى فى أنساب الأشراف [٣] .

أما الحباب بن المنذر صاحب الموقف المعروف يوم السقيفة فمن الطبيعى أن يختفى تماماً بعد بيعة أبى بكر ، وربما يصور لنا مصير الأنصار ومسلكهم بعد رسول الله ﷺ ما أُثِر عن أبى دجانة سماك بن خرشه ، وكان من أعاظم المحاربين وأهل البسالة والنجدة فى الأنصار ، فهذا الرجل الذى كان عَلَماً فى بدر وأُحُد والخندق وحنين لم ينل قيادة ولا رياسة ، واقرأ كيف انتهت حياته مجاهداً أيام أبى بكر .

قال ابن سعد بسنده : « دخل على أبى دجانة وهو مريض وكان وجهه يتهلل . فقيل له : ما لوجهك يتهلل ، فقال : ما من عملٍ شىء أوثق عندى من اثنتين : أما إحداهما فكنت لا أتكلم فيما لا يعنينى ، وأما الأخرى فكان قلبى للمسلمين سليماً . قال محمد بن عمر : وشهد أبو دجانة اليمامة ، وهو فيمن شرك فى قتل مسيلمة

(١) انظر طبقات ابن سعد جـ٣ ، قسم ٢ ص١٢٥ وما بعدها .
(٢) انظر طبقات ابن سعد جـ٣ ، قسم ٢ ، ص٤٠ .
(٣) انظر طبقات ابن سعد جـ٣ ، قسم ٢ ، ص١٤٥ وأنساب الأشراف للبلاذرى جـ١ / ص٢٥٠ .

الكذاب وقُتِل أبو دجانة يومئذ شهيداً سنة عشرة فى خلافة أبى بكر الصديق ، ولأبى دجانة عقب اليوم بالمدينة وبغداد »[1] .

أبو بكر يَدعو أشراف قريش مِن أهل مكّة ليَستعين بهم فى الفتوح :

غاب هؤلاء جميعاً ، أو قل أُخرِجوا فمن الذى تولى مكانهم ؟ القرشيون ! فأما من كان منهم موجوداً وله مكانة فى جماعة الإسلام من أمثال : أبى عبيدة ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، ومَنْ فى طبقتهم فقد أصبحوا فى مقدمة أهل الشورى والقيادة ولحق بهم من أسلم قبل فتح مكة بقليل ، مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ولم يلبث أن خطا المسالمة الذين أسلموا يوم فتح مكة أو بعده خطوة ، فقد تقدموا وحَلُّوا محل الأنصار وصار منهم مَنْ أربى على قدماء المهاجرين فى المكانة ومثلهم فى ذلك يزيد بن أبى سفيان وأخوه معاوية . ولم يأت هذا مصادفة ولا نحن نستنتجه استنتاجاً ، بل لدينا خبر ذو أهمية كبرى أورده عبد الله الأزدى فى فتوحه ، وقد رأيت أن آتى هنا بنصه كاملاً ، لأنه يرينا كيف دخل هؤلاء ومتى وكيف وصلوا إلى القيادات والرياسات .

والآن نورد نص الأزدى ، قال محمد بن عبد الله الأزدى : إنه (أبو بكر) لما تلقى كتاب أبى عبيدة قائد جيوش الفتح فى الشام يستمده حوالى ١٢ شوال سنة ١٢هـ/ ٢٩ ديسمبر ٦٣٣م اجتمع إليه أشراف المهاجرين والأنصار وأهل السابقة منهم فدعا أبو بكر بأشراف أهل مكة ، فقال له عمر بن الخطاب : لأىِّ شىء دعوت بأهل مكة مع المهاجرين والأنصار ؟ قال أبو بكر : لأستشيرهم فى هذا الأمر الذى كُتِب إلينا فيه فقال عمر : فأما المهاجرون والأنصار فأهل المشورة والاستنصاح ، وأما رجال أهل مكة الذين كنا نقاتلهم لتكون كلمة الله هى العليا ويقاتلون ليطفئوا نور الله بأفواههم جاهدين على قَتْلنا وذُلِّنا . إنا قلنا ليس مع الله آلهة أخرى ، وقالوا مع الله آلهة أخرى . فلما أعز الله دعوتنا وصدَّق أحدوثتنا ونصرنا عليهم تريد أن تقدمهم فى الأمور

(١) ابن سعد الطبقات جـ٣ القسم الثانى ص١٠١ - ١٠٢ .

وتستشيرهم فيها وتستنصحهم دون من هم خير منهم ، فما نَصَحْنا إذن بصلحائنا الذين كانوا يقاتلونهم فى الله حين تُقدِّمهم دونهم ، أفلا تراهم إذ وضعهم عندنا جهادهم إيانا وجهدهم علينا ، والله لا نفعل ذلك أبداً . فقال له أبو بكر : إنه قد حَسُن إسلامهم ولقد كنت أريد أن أدينهم وأنزلهم بالمنازل التى كانوا بها فى قومهم من الشرف ، فأما إذ ذكرت ما ذكرت فإن الرأى فى هذا رأيك » .

وبلغ هذا الكلام أشراف قريش فشق ذلك عليهم ، وقال الحارث بن هشام (بن المغيرة بن عمر بن مخزوم) : إنك يا عمر قد كنت فى شدتك علينا قبل الإسلام مصيباً ، فأما الآن فقد هدانا الله إلى الإسلام فلا نراك فى شدتك علينا إلا قاطعاً . وجثا سهيل بن عمرو على ركبتيه وقال : إياك يا عمر نخاطب وعليك نعتب . فأما خليفة رسول الله فبرىء عندنا من الضغن والحقد والقطيعة ، ألسنا إخوانكم فى الإسلام وبنى أبيكم فى النسب، فإنكم إن كان الله قدم لكم فى هذا الأمر قدماً صالحاً لم نؤت مثله لقاطعوا أرحامنا مستهينون بحقنا :

وقال عكرمة بن أبى جهل : إنكم وإن كنتم تجدون فى عداوتنا قبل اليوم مقالاً فلستم اليوم بأشد على من ترك هذا الدين وعادى المسلمين منا ، فقال لهم عمر : إنى والله ما قلت ما بلغكم إلا نصيحة لمن سبقكم بالإسلام وتحرياً للعدل فيما بينكم وبين من هو أفضل منكم من المسلمين . قال سهيل: فإن كنتم إنما فضلتمونا بالجهاد فى سبيل الله ، فوالله لنستكثرن منه ، وأشهدكم أنى حبيس فى سبيل الله . والله لأقفن مكان كل موقف وقفته على حرب رسول الله ﷺ موقفين على أعداء الله ، ولأنفقن مكان كل نفقة أنفقتها على حرب رسول الله ﷺ نفقتين فى سبيل الله ، قال عكرمة : أنا أشهدكم أنى حبيس فى سبيل الله . فقال أبو بكر: اللهم ابلغ بهم أفضل ما يأملون ، واجزهم بما كانوا يعملون . قد أصبتم فأرشدكم الله »[1] .

ولابد أن نلاحظ هنا أن هذا المجلس إذا كان قد حدث ، فلابد أنه كان فى بداية حروب الردة لا فى بداية فتوح الشام ، لأن عكرمة بن أبى جهل اشترك فى محاربة أهل الردة وكان قائداً لواحد من جيوش المسلمين . وهذا الخلط فى تاريخ المجلس لا يضعف أهميته ، لأن الخلط فى التواريخ كثير ومألوف عند مؤرخينا .

(١) محمد بن عبد الله الأزدى ، فتوح الشام ، ص ٤٥ .

وليس من الضرورى أن يكون هذا نص الكلام الذى دار فى هذا المجلس كلمة كلمة ، لأن المقصود هو المعنى ، والمعنى هنا حقيقة . فهؤلاء القرشيون أدركوا فى وقت متأخر حقيقة الإسلام والفضل فى ذلك يرجع إلى رسول الله ﷺ الذى أحسن استقبالهم وأكرمهم فأزال من نفوسهم الضغينة والحقد وأشعرهم بالندم على ما فات فثبتوا مكانهم ينتظرون فرصة مناسبة يدلون فيها على صدق إيمانهم واستعدادهم للبذل فى سبيل الإسلام . وليس معنى ذلك أننا نقول إنهم رأوا فرصة فانتهزوها ، فليس لدينا ما يدل على ذلك ، ولسنا كذلك نقول إنه لولا حدوث الفراغ بغياب سادات الأنصار عن القيادات لما دخل سادات قريش ، فإن كتابة التاريخ لا تقوم على فروض ، وليس من الصواب كذلك أن يقال هنا إن فلاناً أخطأ أو فلاناً أصاب ، فإننا لا نعرف فى مسار التاريخ فى موقف كهذا إن كان هناك محل للحكم بخطأ أو صواب، ثم أين هو المقياس الذى نقيس به أعمال رجال مثل أبى بكر وعمر ؟

أضف إلى ذلك أن حقائق القضية كلها ليست لدينا ، فمن يدرى فلعل الأنصار هم الذين اختاروا هذا الموقف من القيادة والسياسة ، لقد كانوا أسعد الخلق مع رسول الله ﷺ ، وقد دامت سعادتهم به ومعه ثلاث عشرة سنة من التوفيق والنصر والسمو الروحى ، وأى شىء يطلبه الإنسان فى هذه الدنيا بعد عشر سنوات يقضيها فى صحبة خير البشر يتمتع فيها بالعمل معه فى سبيل الإسلام والاقتباس من أنواره فى سبيل الخير والإسلام ؟

واقرأ تفاصيل غزوة الغابة التى كانت فى ربيع الثانى سنة ست للهجرة ، «أغسطس ٦٢٧م » لترى كيف كان الأنصار فى أقصى درجات السعادة وهم يجاهدون مع رسولهم الأكرم الأعز ، إنهم ليطيرون طيراناً كأنهم كلهم شباب فى مداخل العمر تسبح بهم الخيل سبحاً بين يدى الرسول ﷺ وإن أحدهم وهو سلمة ابن الأكوع ليسبق أسرع الهجن على قدميه فى طلب العدى وكل مأربه نظرة رضا أو دعوة يفوز بها من الرسول الأكرم [1] . فلما توفى الرسول وكان ما كان يوم السقيفة ورأوا تمسك المهاجرين بالرياسة انصرفت أنفسهم عنها وزهدوا فيها ، كما رأينا فى موقف بشير بن سعد .

---

(١) أحسن وصف لها وأكثره تفصيلاً نجده عند الواقدى (مغازى : ٢/ ٥٣٧ - ٥٤٩) وإنما اخترتها لأنها من صغار المغازى التى يتسع وقت الرسول فيها للحديث مع كل واحد من أفراد جماعته .

ومن الواضح أن الأنصار جملة لم يكونوا بأهل اهتمام بالرياسة فلم نلحظ فيهم شيئاً من ذلك أيام الرسول ﷺ ، حتى سعد بن عبادة ، ولم تكن العلاقات طيبة بينه وبين كبار المهاجرين لم تطمح نفسه إلى رياسة بعد السقيفة وإنما كان قُصارى أمله أن يرضى عنه رسول الله ﷺ ، فى حين أن أبا بكر وعمر كانا دائماً إلى جانب الرسول يشتركان معه فى المشورة وتبادل الرأى ويسارعان فى التنفيذ . وكان الأنصار - فيما يبدو - فى الواقع يرون أن صلتهم الأساسية التى تهمهم هى الصلة برسول الله ﷺ والإسلام . أما المهاجرون فكانوا يتصرفون بعد رسول الله وكأنهم رؤساء الجماعة ، وانظر مثلاً موقف عمر بن الخطاب من قيس بن سعد بن عبادة فى سرية الخَبَط حيث تطوع قيس بشراء جُزُر أى : جمال للمسلمين من رجل جهنى على أن يؤدى له الثمن تمراً فيما بعد ، فأنكر عمر ذلك عليه وقال : إنه لا يجوز له أن يشترى بمال أبيه دون أن يستأذنه وأصر على ذلك حتى مال إلى رأيه أبو عبيدة وكان أمير الجماعة ، وعندما عادت السرية استحسن سعد بن عبادة تصرُّف ابنه ووهبه حائطاً أى حديقة، كى يكون له مال ينفق منه دون الرجوع إلى أبيه ، وقد أيد الرسول ﷺ تصرُّف قيس بن سعد وأبيه وأثنى على سعد بن عبادة . وبصفة عامة نستطيع القول إن سعد بن عبادة لم يكن على علاقات طيبة مع عمر بن الخطاب وبعد توقف التآخى نلاحظ بصورة عامة أن العلاقات بين المهاجرين والأنصار لم تكن وثيقة بالشكل الذى نتصوره . وأبو بكر وحده ينفرد بعلاقات ممتازة مع الأنصار بسبب ما كان فى خُلُقه من لين ومحبة للناس .

والذى يعنينا هنا هو أن قريشاً عادت فأخذت مكاناً فى صدارة أمة الإسلام ، الذى حاربته وظنت أنه نهايتها ويشاء ربك أن يكون مولداً جديداً لها ، ولا مجال هنا لسوء الظن والقول بأن القرشيين دخلوا الدين وطلبوا الاشتراك فى الفتوح طمعاً ، فالحق أن معظم أولئك الرجال صدقوا فعلاً فيما قالوه لأبى بكر ، أما ما كان بعد ذلك من غلبة الطموح السياسى على فريق بنى أمية وأحلافهم أثناء خلافة عثمان فتلك قصة أخرى لها ظروفها وعواملها التى ظهرت خلال السنوات الأخيرة من خلافة عمر ، وتجلت طوال خلافة عثمان وما تلاها من فترة جددت الخصومة القديمة بين أبناء هاشم بن عبد مناف وأبناء أخيه عبد شمس ، واتجهت بتاريخ أمة الإسلام كله اتجاهاً أسيفاً .

واقرأ معى هذه الفقرة من كتاب « نسب قريش » لأبى عبد الله المصعب الزبيرى لترى مثالاً يؤكد لك صدق هؤلاء القرشيين عندما تكلموا بما تكلموا به مع أبى بكر وعمر فى المشهد الذى رويناه بنصه تقريباً ، والخبر هنا يتعلق بأولاد أبى أحيحة سعيد ابن العاص ، وبعضهم كان من ألدِّ خصوم الإسلام حتى فتح مكة ، قال: فولد أبو أحيحة سعيد بن العاص : أحيحة وبه كان يكنى ، والعاصى قتله على بن أبى طالب يوم بدر كافراً ، وعبد الله وكان اسمه الحكم فسماه رسول الله ﷺ عبد الله وأمره أن يُعلِّم الكتابة بالمدينة وكان كاتباً قُتِل يوم مؤتة شهيداً ، وسعيد بن سعيد قُتِل يوم الطائف شهيداً وعَمْراً قُتِل يوم أجنادين شهيداً ، وأمهم صفية بنت المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم وأبان بن سعيد قُتِل يوم أجنادين شهيداً ، وعبيدة قتله الزبير بن العوام يوم بدر كافراً ، وفاختة تزوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس فولدت له مريم ، فولدت مريمُ القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف فبقية عقب أبى العاصى بن الربيع من ولدها ، انقرض ولد أبى العاصى بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف من زينب بنت رسول الله ﷺ ، وأم بنى سعيد هؤلاء هند بنت المغيرة بن عبد الله بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم . وخالد بن سعيد (بن العاصى) وهو أبو أحيحة ونحن بصدده قُتِل بمرج الصُّفَّر [1] وكان إسلام خالد بن سعيد متقدماً يقولون كان خامساً ، وأسلم أخوه عمرو وهاجروا جميعاً إلى أرض الحبشة وكان ممن قدم على رسول الله ﷺ فى السفينتين « من الحبشة » [2] . فهذه مصائر بيت واحد من بيوت أولئك الذين أسلموا عند الفتح وأتيحت لهم الفرصة للوصول إلى الاشتراك فى فتوح الإسلام ، فانظر كم شهيداً منهم جاد بنفسه فى سبيل الإسلام .

أما مصير سهيل بن عمرو وبيته فيقول فيه المصعب الزبيرى : « وخرج سهيل بجماعة أهله إلى الشام ، فجاهدوا حتى ماتوا كلهم هناك ، فلم يبق من ولده أحد إلا فاختة بنت عتبة بن سهيل . قدم بها على عمر (بن الخطاب) وكانت تسمى الشريدة ،

(١) كان ينبغى أن يضيف هنا : شهيداً لأنه استشهد فى فتوح الشام .
(٢) المصعب الزبيرى ، نسب قريش ، ص ١٧٤ - ١٧٥ .

فزوجها عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة ، وكان أيضاً يقال له الشريد »[1].

وأما عكرمة بن أبى جهل ، فيقول عنه وعن أولاده المصعب الزبيرى « ولما ندب أبو بكر الناس لغزو الروم وقدم الناس فعسكروا بالجُرف على ميلين من المدينة ، خرج أبو بكر الصديق يطوف فى عسكرهم ويقوى الضعيف منهم ، فبصر بخباء عظيم حوله ترابط ثمانية أفراس ورماح وعدة ظاهرة ، فانتهى إلى الخباء ، فإذا خباء عكرمة فسلَّم عليه فجزاه أبو بكر خيراً وعرض عليه المعونة فقال : أنا غنى عنها ، معى ألف دينار فاصرف معونتك إلى غيرى ، فدعا له أبو بكر بخير ، ثم استشهد عكرمة يوم أجنادين ولم يترك ولداً وأمه : أم مجالد إحدى نساء بنى هلال بن عامر »[2].

وهذا الإهمال لأمور السياسة من جانب الأنصار يبدو وكأنه نتيجة لما انتهت إليه الأمور يوم السقيفة ؛ فإن رؤساء الأنصار الذين كانت نفوسهم تطمح للرياسة خرجوا من السقيفة وهم يشعرون أنهم انهزموا وزهدوا نتيجة لهذا فى الاشتراك فى الإدارة والحرب ، ومن أمثلتهم : سعد بن عبادة بن دليم ، والحباب بن المنذر ، وبعضهم لم تطمح نفسه للرياسة لأنه لم يكن يهتم بها كما رأينا فى موقف بشير بن سعد والأحداث على أى حال سارت بسرعة كبيرة لم تسمح لأبى بكر وعمر بإعادة النظر ومحاولة استرضاء الغاضبين من زعماء الأنصار ، خاصة وقد وعد أبو بكر فى السقيفة أن يكون الأمر بين المهاجرين والأنصار قسمة عادلة بحق النصف ، وألا يُفتاتون بمشورة ولا تُقضى دونهم الأمور ، وكان يُرْجَى من أبى بكر أن يسعى إليهم ويترضاهم ويعطيهم نصيباً من القيادة ، ولكن ظروف حرب الردة لم تسمح بذلك فيما يبدو ، وما دمنا لا نملك تفاصيل يُعتمد عليها فى معرفة حقيقة ما جرى أثناء اختيار قيادات جيوش الردة ، فلنكتف بالقول بأن الأنصار تُركوا جانباً فلم يكن لهم نصيب من القيادات ، وإن كان لهم الحظ من الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله .

وربما كان الأفضل لأمة الإسلام لو أن الأمور جرت على ما قَبِله المهاجرون والأنصار معاً يوم السقيفة ، من أن يكون الأمر شورى بين رؤساء المسلمين من

---

(١) المصعب الزبيرى ، نفس المصدر ص ٤١٩ .
(٢) المصعب الزبيرى ، نسب قريش ص٣١١ .

مهاجرين وأنصار كما كان الأمر أيام رسول الله ﷺ ، فقد كان الرسول نبى الجماعة وهاديها ورأسها ولكنه لم يكن يفضل أحداً على أحد . والقيادة كانت جماعية تقوم على الشورى ولو ظلت قيادة الأمة جماعية يتولاها جماعة من الصحابة ، فلا تكون مهمة رئيسها إلا تنفيذ ما يستقر عليه أمر الجماعة ، لكان هذا أسلم لأمة الإسلام وأسلم لقريش كذلك ، فإن انفراد قريش بالأمر حمَّلها من الأمر جسيماً وفرض عليها مسئولية فرحت بها أول الأمر ، ولكنها لم تلبث أن ناءت بعبئها وكانت فيها نهايتها .

* * *